هوراسيو كيروغا

قصص الحب والجنون والموت





رواية

ترجمة
صالح علماني

هوراسيو كيروغا

قصص الحب والجنون والموت

قصص

ترجمة

صالح علماني

طوى
للثقافة والنشر والإعلام

هوراسيو كيروغا: قصص الحب والجنون والموت

Book: Qesas Alhoob Wa Aljonon Wa Almaot

الكتاب: قصص الحب والجنون والموت

Horacio Quiroga: Cuentos de Amor de Locuray de Muerte

ترجمة: صالح علماني

Translated By: Saleh Almani

First Edition: 2015

الطبعة الأولى ٢٠١٥



للثقافة والنشر والإعلام

طوى للثقافة والنشر والإعلام - لندن

TUWA MEDIA & PUBLISHING LIMITED

19 TANFIELD AVENUE, LONDON, NW2, UNITED KINGDOM

Tel: 009662108111 - 00966505481425

Email: Tuwa.pub@gmail.com

التوزيع: منشورات الجمل

تلفون وفاكس: ٣٥٢٣٠٤ ـ ٠١ ـ ٠٠٩٦١

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

ISBN 978-9933-35-200-4

حياة هوراسيو كيروغا المأساوية

الصمت يخيم على مستشفى بوينس أيرس الجراحي. إنها ساعات الفجر الأولى. والورقة التي لم تنتزع بعد من التقويم تشير إلى يوم ١٩ شباط ١٩٣٧. هناك رجل ينام باطمئنان. اسمه باتيستيسا. لكن ضجة مفاجئة توقظه. ينهض هذا المريض، ويهرع إلى الغرفة المجاورة. النور مضاء. وفي السرير رجل له لحية مجعدة وكثة يتقلب مطلقاً حشرجات الموت. إنه هوراسيو كيروغا. لقد كان يعاني المرض منذ شهور عديدة. وقد أُجريت له عملية البروستات. لكن آلامه تواصلت بعد العملية الجراحية. وكان قد عرف في اليوم السابق حقيقة مرضه، وأدرك أن لا أمل له في الشفاء. لقد خرج في اليوم السابق من المستشفى. وزار ابنته ايغلي. وتحدث معها طويلاً. ثم ذهب بعد ذلك إلى بيت الرسام بايرو، مثلما يفعل عادةً. ولم يكن هناك أي شيء غير عادي في سلوكه أو كلامه. وفي طريق عودته إلى المستشفى، عرّج على صيدلية واشترى منها السيانور.

في صباح ذلك اليوم، التاسع عشر من شباط، اجتمعت ثلة من الكتاب، عدد قليل من الأصدقاء، حول جثمان كيروغا. وقد سجل

أحدهم انطباعاته عن تلك اللحظة. إنه الياس كاستيلنوبو، الذي كان يقف قبالة جسد المنتحر. «أتأمله وهو مسجى في تلك الحال، متيبساً ونحيلاً، وأشعر نحوه بالاحترام نفسه الذي كان يبعثه فيّ وهو حي، وبالجدية نفسها، وبالاحتفاظ بمسافة التوقير نفسها بعيداً عنه... رهبة في حياته ورهبة في مماته. وأشعر برهبة أكبر وأنا أرى رجلاً قرأه ملايين البشر، لا يقف إلى جوار جثمانه إلا بعض رفاق المهنة الصامتين، ممن لا يتبادلون حتى التحية فيما بينهم».

قبل أكثر من خمسين سنة من ذلك اليوم، ولد هذا الرجل المسجى في مكان بعيد، فيما وراء النهر، في بلدة «إل سالتو» بأراضي أورغواي. كان ذلك في الحادي والثلاثين من كانون الأول عام ١٨٧٨. كان أبوه أرجنتينياً تربطه صلة قربى بشخصية فاكوندو الرهيب «نمر السهوب» الذي ابتدعته مخيلة الكاتب الأرجنتيني سارمينتو. لقد وصل الأب إلى تلك البلدة ليستقر في الأروغواي. وبعد أربع سنوات تزوج من باستورا فورتيرثا، ابنة أسرة ميسورة. وأنجب الزوجان أربعة أبناء، كان آخرهم هو كاتب المستقبل.

لم يكن هوراسيو قد تجاوز الثانية من عمره عندما مرض الأشقاء الأربعة بداء صدري. فنصح الأطباء بضرورة تبديل الجو والانتقال إلى مزرعة قريبة. وفي صبيحة أحد الأيام، يوم مماثل لأيام كثيرة سواه، دعا الأب أسرته للقيام بنزهة. وقد ذهب في أول الأمر مع خادم في قارب ليصطاد. ورجع إليهم باكراً. وفي المرسى، وكان هوراسيو ما يزال صغيراً تحمله أمه بين ذراعيها،

قفز الرجل إلى البر. وكان يحمل بندقية الصيد في يده الخشنة. فاصطدم السلاح بحافة المرسى، وانطلقت منه رصاصة اخترقت رأس الأب بروديثيو كيروغا.

انتقلت الأرملة وأيتامها إلى قرطبة، في الأرجنتين. وهناك انقضت أربع سنوات أخرى من حياة كيروغا قبل أن تعود الأسرة ثانية إلي «إل سالتو»، ويبدأ الأولاد بالذهاب إلى المدرسة. كان هوراسيو تلميذا قلقاً. ولم يكن يدرس إلا المواد التي تستهوي عقله الطفولي: التاريخ والكيمياء. وفي البيت، كان يقرأ بشغف المجلات التي تأتي من بعيد، والتي كانت تزود مخيلته العذراء بكل قوة الخيال الطاغي. كان يقرأ «بريد ما وراء البحار» القادمة من برشلونة، وموسوعة شعبية بعنوان «العالم بين يديك». وكان يلتهم صفحات أندرسون وبيرولت وفيرن ودوماس بسرعة فائقة ليشبع نهمه إلى القراءة. كما كان يحب ركوب الدرجات الذي يقوي عضلاته الفتية.

كان الأولاد ما يزالون صغاراً عندما تزوجت الأم ثانية في عام ١٨٩١. وقد تعلق هوراسيو كثيراً بزوج أمه اسثينثيو باركوس. ولم تنقض سنوات طويلة حتى أصيب هذا الرجل بنزيف في الدماغ، وأدى به المرض إلى الشلل. لكن باركوس الذي حُكم عليه بالبقاء طريح الفراش إلى الأبد، يتخذ بينه وبين نفسه قراراً حاسماً. ويتمكن في صباح أحد الأيام، وهو في البيت وحده، من الوصول إلى بندقية صيد. فيُدخل أصابع قدمه التي يستطيع تحريكها وراء

زناد السلاح ويطلق رصاصة على نفسه. وتعود أجواء اليتم لتخيم بظلالها السوداء على مراهقة كاتب المستقبل.

وفي الثامنة عشرة من عمره يرتبط بصداقة حميمة مع شاب جامعي يدعى ألبيرتو بريغنولي. فكلاهما يحب قراءة كتب الأدب والفلسفة. ثم ينضم إليهما صديقان آخران، فيطلق الأربعة على أنفسهم أسماء فسان دوماس المشهورين. ويتمكن كيروغا باندفاعه وكبريائه من الاحتفاظ لنفسه باسم الفارس دارتنيان. ينتهي عام ١٨٩٧، وينتقل كيروغا وبريغنولي إلى جامعة مونتيفيديو. ولم يكن الشاب قد حدد حتى ذلك الحين توجهه الدراسي. ولكن الواضح تماماً أنه كان يميل إلى الأدب. وحين رجع لقضاء بعض الوقت في «إل سالتو»، بدأ بنشر بعض القصائد والقصص في عدد من المجلات الأسبوعية. وقد اختار اسماً مستعاراً يوقع به هو اسم غيلليرم اينهاردت، بطل رواية «وباء العصر» لماكس نوردو، وبعد سنتين من ذلك يؤسس «مجلة إل سالتو»، ويكون إلى جانبه زميله ألبيرتو يريغنولي. وقدِ ظهرت على صفحات تلك المجلة قصص وأشعار كثيرة للشاب كيروغا. ولكن المجلة اختفت بعد خمسة شهور من بدء صدورها. فهي لم تستطع الصمود أمام عدم المبالاة في المدينة الصغيرة.

كانت الأوساط الأدبية في أميركا اللاتينية حينذاك تتجه إلى الحداثة الشعرية المستجدة. وكان جميع الشعراء الشباب يعكفون

على قراءة روبين داريو، وينهلون من أعمال الأدباء الفرنسيين الجدد، ويحلمون بالسفر إلى باريس. وفي عام ١٨٩٨، يقوم بريغنولي وكيروغا برحلة إلى بوينس أيرس ليتعرفا مباشرة على الشاعر ليوبولدو لوغونيس. ويعد كيروغا العدة هناك للقيام برحلة أطول: إنه يريد الذهاب إلى باريس. وفي آذار ١٩٠٠ يتوجه إلى أوروبا. وقد بقيت لنا من تلك الرحلة مذكرات سجل فيها الكاتب انطباعاته. فباريس لم تخلب لبه، بل إنها على العكس من ذلك، تسبب له خيبة أمل كبيرة. والكتّاب الذين يتعرف عليهم هناك يثيرون اشمئزازه، باستثناء روبين داريو. وبعد أربعة شهور يعود إلى مونتيفيديو. يرجع متعباً، خائب الأمل، متخلصاً من الوهم. ويفقد طبع الشاب «المتأنق» الذي كان يحب الظهور به. فجو المدينة الكبيرة المنحط ليس جوه. وربما يكون قد ترسخ منذ ذلك الحين حبه للأراضي البكر.

لكن هوراسيو كيروغا كان ما يزال يحتفظ بوهم مواصلة حياة «المتأنق» في أورغواي تلك الحقبة، ببقايا البوهيمية التي مازالت لديه. وفي مونتيفيديو، يعيش حياة المقاهي، ويعقد صداقات مع كتّاب وفنانين شباب. ويؤسس مع جماعة الشبان **مصلى للأدب**، يطلقون عليه اسماً رناناً: «محفل غاي سابير الأدبي»، محيين بذلك تقاليد أدبية قديمة من العصور الوسطى. ويكون كيروغا هو رئيس الكهنة، وبريغنولي قارع الأجراس، وصديق آخر يدعى فيراندو رئساً للخوارنة، وتكتمل الجماعة بقندلفت ومساعدي قسيس.

ويستسلم الشبان لطقوس أدبية في أجواء من العصور الوسطى. فيكتبون، ويتجادلون، ويقارنون نصوص بعضهم بعضاً. وفي أثناء ذلك يتأسس محفل أدبي آخر في مونتيفيديو هو «البرج البانورامي» الذي كان يقوده الشاعر خوليو هيريرا آي ريسيغ.

ومن جلسات ذلك المحفل خرج كتاب كيروغا الأول «الصخور المرجانية» (١٩٠١) المهدى إلى ليوبولدو لوغونيس، والذي يضم أشعاراً وقصصاً قصيرة. ويتسم الكتاب بالرمزية التي كانت في طور الانحدار. وقد هاجمه بشدة بعض الكتاب المحافظين لكن لوغونيس وريكاردو روخاس أثنيا عليه. وفي تلك الأيام أيضاً يفوز كيروغا في مسابقتين أدبيتين.

كانت الأجواء الأدبية متوترة ومشحونة بالاختلافات. وكانت النزاعات بين الكتّاب الشباب تزعزع سكون مونتيفيديو الهاجعة بخمول. وقد بلغت إحدى المناظرات التي نشبت بين فيراندو وكاتب آخر حداً من العنف جعلهما يفكران في المبارزة بالمسدسات لحسم القضية. وقد اشترى فيراندو مسدساً بالفعل، وأراد كيروغا الذي كان يزوره في بيته أن يشرح له كيفية استخدام السلاح. فأمسك المسدس، وضغط على الزناد وهو لا يعلم أنه محشو. ورأى كيروغا صديقه يهوي إلى جواره. وقد رافق عدد كبير من الكتاب جثمان فيراندو إلى مثواه الأخير، وألقى هيريرا آي ريسيغ الصلوات الجنائزية على الضريح. أما كيروغا الذي أفقدته

المأساة صوابه، فقد أبحر فوراً إلى بوينس أيرس. وهكذا اختتمت مرحلة من حياته بعمل عبثي لا يمكن تفسيره.

بعد استقراره في العاصمة الأرجنتينية، حصل كيروغا على وظيفة أستاذ، وكان يتردد في أثناء ذلك على الصالونات الأدبية. وفي عام ١٩٠٣ يعلم بمشاريع لوغونيس لتنظيم حملة استكشافية إلى أطلال الإمبراطورية الجيزويتية القديمة في منطقة ميسيونيس، ويتمكن كيروغا من الانضمام إلى الحملة كمصور. وهكذا يذهب إلى الأراضي الموحشة التي ستصبح موطنه المفضل. ويمكن القول انه قد تبدل كثيراً بعد عودته إلى بوينس أيرس. فالربو وعسر الهضم اللذان كان يعاني منهما قد اختفيا. وينكر جميع رفاقه في الحملة ملاحظتهم ما عرف عنه من فظاظة الطبع وتقلب المزاج. فقد بهرته أجواء ميسيونيس، واجتذبته حياة العمال وسط تلك الغابات وفتنته، وبدأ بالتفكير في أن تلك هي الحياة التي يفضلها. ولكنه يبقى في بوينس أيرس حينئذ.

وتنقضي سنة ١٩٠٤، ويظهر في أثنائها كتابه الثاني «جريمة الآخر». وهو مجموعة قصص يظهر فيها تأثره الواضح بادغار آلن بو. وتفتح له قصص المجموعة الاثنتا عشرة طريق الشهرة. ويكون موضوع بعضها مستمداً من سيرته الذاتية، ويكشف بعضها الآخر عن قراءته لأعمال بيير لوتي الذي كان محط الإعجاب في تلك السنوات. ثم ينشر في العام التالي كتاباً آخر: «المطارَدون»

(١٩٠٥). ويساهم كيروغا في أثناء ذلك بالكتابة لبعض المجلات الشعبية: «وجوه وأقنعة» و«البيت» و«اتلانتيدا».

تستحوذ على ذهنه فكرة التحول إلى مزارع قطن في شاكو، لأن الحياة الأدبية تغيظه. لكنه يعين بروفسوراً للغة القشتالية وآدابها في دار المعلمين في بوينس أيرس. ويتمكن من شراء قطعة أرض مساحتها ١٨٥ هكتاراً في إقليم ميسيونيس. وتبهره قرية سان إغناسيو التي كان السكان الأصليون من الهنود يطلقون عليها اسم ايفيرارومي. وعندما تحل العطلة الصيفية، يهرب الأستاذ والكاتب إلى ذلك المكان ليشيد بيتاً على مقاس أحلامه.

ويكون كتاب كيروغا الرابع رواية بعنوان «**قصة حب كدرة**» (١٩٠٨)، ويختتم بها المرحلة الأولى من إنتاجه. إنها رواية سيكولوجية، وفيها إشارات إلى حياته الشخصية ومشاعره. ويطري لوغونيس على أسلوب الكاتب ونثره. فثمة شيء من ديستويفسكي في تلك الصفحات. لكن الحياة اليومية في المدرسة كانت تخبئ له مفاجأة. فالطالبات يغازلن أستاذهن، وتجد مغازلة آنا ماريا ثيريس صدى في نفسه. وتكون بينهما فترة خطوبة قصيرة ومضطربة. فالقصّاص متقلب الطبع؛ وهو فظ وغاضب في معظم الأحيان. ويتم الزفاف في شهر كانون الأول ١٩٠٩. ويذهب العروسان إلى أراضي ميسيونيس لقضاء شهر العسل.

كان الكاتب قد شيد بيتاً بمساعدة عاملين اثنين فقط، وقد بناه

من أخشاب طرية جداً، ولهذا ما لبثت عيوبه الكثيرة أن بدأت بالظهور. وكان يبدو أن آنا ماريا قد تأقلمت مع تلك الأجواء. فكان أن قدم كيروغا استقالته من التدريس في أيار ١٩١١، وزرع برتقالاً، وأبدى رغبته في زراعة عشبة المتة. ثم عينه أهالي سان إغناسيو قاضي سلام للبلدة. وكانت ابنته الأولى ـ ايغلي ـ قد ولدت في كانون الثاني ١٩١١. ثم ولد في السنة التالية ابنه داريو. وكان يريد تربية الابنين «مثل جراء الجبل» وسط قلق الأم المتزايد.

لم تسر العلاقات الزوجية على ما يرام. فالمشاجرات بين الزوجين تكاثرت جداً، خصوصاً وأن تلك الحياة البدائية لم تكن سهلة على الإطلاق. وفي أحد الأيام تتناول آنا ماريا جرعة كبيرة جداً من الأدوية، ويلي ذلك ثمانية أيام من الاحتضار. فيحاول كيروغا إنقاذها بكل جهوده، ولكن دون جدوى. وقد بقي الكاتب يبذل الجهود إلى جوارها حتى أسلمت الروح يوم ١٤ كانون الأول ١٩١٥. وهكذا بقي كيروغا وحيداً وسط تلك الأدغال، ومعه الطفلان اللذان أراد تربيتهما ليتحملا الحياة الشاقة في مواجهة تلك الطبيعة القاسية. وفي أثناء ذلك كان يقوم بأعمال كثيرة ومتنوعة، فهو حطاب ونجار ومزارع وكل شيء. وكانت تراوده أشد الأفكار غرابة، وتخطر لباله مشاريع صعبة التحقيق. وقد زعزعت نفسيته كثرة الإخفاقات في تلك الأيام.

وأخيراً، في أواخر عام ١٩١٦، يعود كيروغا إلى بوينس

آيرس. ويقطع صلته بأرضه الزراعية وبالأدغال البرية وبمحاصيله ومواشيه. وفي العام التالي يظهر الكتاب الذي سيجعل منه كاتباً مشهوراً: **قصص الحب والجنون والموت**. وكان حينئذ في الأربعين من عمره. وفي عام ١٩١٩ يتلقى أمر تعيينه سكرتير حسابات في قنصلية الارغواي العامة لدى الأرجنتين. وكانت تلك هي أسعد مراحل حياته. وفي أثنائها توالى ظهور أفضل أعماله: «**حكايات الغابة**» (١٩١٨)، «**المتوحش**» (١٩٢٠)، «**انكنده**» (١٩٢١)، «**القفر**» (١٩٢٤)، «**المنفيون**» (١٩٢٦).

ويمكننا القول أن شهرة كيروغا تستند أساساً إلى هذه الكتب. فحماسته لآلن بو وموباسان وميترلينك وغيرهم من الكتّاب الذين أثروا على المرحلة الأولى من إبداعه، تتقلص بصورة ملحوظة. وتتلو قصص الرعب التي كان يكتبها قصص عن الحياة في أقيم ميسيونيس، حيث يواصل الكتابة عن كل ما هو غير طبيعي وكئيب، ويقدم الشخصيات المعقدة والمضطربة نفسياً، ولكن دون أن يصبح ذلك هاجسه الأوحد. وتصل إلى قصصه أجواء الأدغال، وشخصيات قرية سان اغناسيو ومحيطها، والحيوانات والنباتات التي تنمو بصورة عجيبة في ذلك المناخ دون الاستوائي، بموضوعية أكبر وبفنية عالية.

ويمكننا أن نذكر من هذه الأعمال قصصاً ذات قيمة خالدة، منها قصص رعب خالصة على طريقة آلن بو، كما هو الحال في

«**وسادة الريش**» و «**الدجاجة المذبوحة**»، وتوغل في عالم مادون الوعي، مثل «**التهاب السحايا وظلها**»، وقصص أدغال للأطفال، وقصص للسينما، وهي هوى حقيقي لدى كيروغا. ويثير الاستغراب وجود قصص تتضمن شيئاً من الفكاهة، وهو أمر نادر في أعمال هذا الكاتب الكئيبة المتجهمة. ومن بين قصص الحياة المتوحشة في الأدغال، تبرز بصورة خاصة قصص الأفاعي، مثل «**انكنده**» و «**حرب التماسيح**». وهو يقدم هذه الحيوانات في صورة شخصيات قصصية مقنعة، وبحيوية لا تقل عن حيوية النماذج البشرية التي يتناولها: العمال الزراعيون، المتشردون، المهاجرون، وغيرهم... ولابد لنا أن نتذكر كذلك تلك القصص التي تتناول قضايا خيالية غرائبية وقصصه المجازية والرمزية.

وعلى امتداد سنوات حمى الإبداع الأدبي الملتهب تلك، لم يتخل كيروغا في المدينة الضخمة عن ممارسة أعماله اليدوية. فقد كان ينهمك في صنع الفخار، وتجليد الكتب، وصنع المفروشات. وكان يحب الانطلاق بأقصى سرعة على دراجته النارية، ثم بسيارته الفورد العتيقة فيما بعد، وكأنه يسعى بنفسه إلى أقصى المخاطر. وكان من أوائل من خاطروا في منطقة ريو دي لابلاتا (منطقة نهر لابلاتا، وهي تضم الأرجنتين والاورغواي والباراغواي) بقيادة طائرة شراعية. وقد عادت حياته العاطفية تتفتح في تلك الحقبة. فتعرف على فتاة شابة، إحدى صديقات ابنته ايغلي. وكان عمره آنذاك ٤٦ سنة، وعمرها ١٨ سنة. وقد أحب كل منهما الآخر

بجنون. «هاأنت ذا ترى يا هوراسيو، الجميع أصبحوا يعرفون أنك متيم إلى حد الجنون». أما والدا ماريا إيلينا (وهذا هو اسم الفتاة) اللذان كانا يعرفان المصير المحزن الذي وصلت إليه زوجة كيروغا الأولى، فحاولا أن يحولا دون ذلك الزواج. ولكن دون جدوى. فقد تزوجا في تموز ١٩٢٧.

كان الكاتب قد عاد يتردد على ميسيونيس. ولكنه استأجر في الوقت نفسه بيتاً جميلاً في بوينس آيرس، حيث كان دبه **الكواته** المفضل، وابناه، وعدة عمله، وبضعة أصدقاء يزورونه. وقد أنجبت له ماريا إيلينا ابنة أخرى. لكن عمل كيروغا البيروقراطي في قنصلية الاورغواي تحول إلى إخفاق ذريع. وعندما وقعت تبدلات عنيفة في بلاده، تمكن كيروغا باللجوء إلى كل الوسائل، من الانتقال إلى سان اغناسيو، وقد ذهب إليها مع زوجته الشابة، وأولاده الثلاثة، وسيارته القديمة. ووجدت ماريا إيلينا هناك بيتاً أكثر راحة مما كانت تتصور: فالبيت حسن الترتيب، والمذياع يقربهم من العالم، والأزهار تحيط بالمسكن البديع. لكن كل شيء كان يتجه رغم ذلك نحو التوتر الذي يميز طبع كيروغا. فقد بدأ الحب يفتر، وصارت الزوجة تحن إلى المدينة. وفي عام ١٩٣٦، يعترف كيروغا في رسالة إلى أحد أصدقائه بأن الطلاق صار وشيكاً. وقبل سنتين من ذلك كان قد أُوقف عن العمل «لأنه استخدم آلة الكتابة الخاصة بالقنصلية لأغراضه الشخصية».

ثم تأتي، حتماً، لحظة الانحدار... الهزيمة. وقد روى ازيكييل

مارتينث ايسترادا قصة السنوات الأخيرة من حياة القصاص في كتابه «**الأخ كيروغا**». فقد كانا كلاهما من النمط نفسه. ويعترف له كيروغا في إحدى رسائله: «أعرف أننا متشابهان، ربما بين ملايين البشر الآخرين المتشابهين، وأننا نسير فوق حبل محبوك من النسيج ذاته، حتى وإن كانت حبكته وألوانه مختلفة. فأنا وأنت متماثلان في وضعنا الخاص، وضع سحيق ومضيء مثل جحيم. هذا هو ما أظنه أنا». ويُعرض على الكاتب منصب قنصل فخري: خمسون بيزو شهرياً. ويحصل على التقاعد المنشود في أيار ١٩٣٦. ومع ذلك، فإن المجلات التي كان ينشر فيها لم تعد تطلب مساهماته كالسابق. لقد بدأت شعبيته بالانحدار، ويقول معترفاً: » ليس ذلك لأن نوعية أعمالي قد انخفضت، وإنما هو بسبب مسألة العرض والطلب السائدة». وكتابه الأخير «**الماوراء**» (١٩٣٤) يكشف بعض جوانب الانحدار الذي لاشك فيه. ويتحدث كيروغا عن مهنته الأدبية في رسالة إلى خوليو بايرو قائلاً له: » إن الموت والصمت في الوقت المناسب هو هبة من السماء في هذه المهنة».

تبدأ معاناته الجسدية بالتفاقم. فقد أصبح وحيداً في ميسيونيس. بينما زوجته وأولاده في بوينس آيرس. ويشخص أطباء بوساداس داءه: تضخم في البروستات. ويتمكن بعض الأصدقاء من نقله إلى العاصمة الأرجنتينية ليجري له جراح معروف عملية جراحية. لقد كان التحسن طفيفاً. وقد قال للكاتب انريكي اموريم الذي كان يعوده، إنه يريد العودة إلى» إل سالتو» لأنه مثل الأفيال التي تحب

أن تموت في المكان الذي بدأت فيه حياتها. وكان يعاني في بعض الأحيان آلاما رهيبة ومبرحة: «آلام جسدية من كل الدرجات، حتى انه كان يصرخ صرخة ألم تستمر من الساعة الثانية حتى الثامنة صباحاً». إننا في العام ١٩٣٧.

لم يُثر خبر انتحار هوراسيو كيروغا اهتمام سفارة الاروغواي في بوينس آيرس، كما يوضح هانيه غابريلي ريك في كتابه الحديث عن الكاتب. وقد جمع أصدقاؤه وأقرباؤه نقوداً لدفنه. لكن الاهتمام الرسمي ما لبث أن ظهر فجأة بذلك الكاتب الذي أُوقف عن العمل يوماً لأنه استعمل آلة الكتابة في القنصلية لأغراضه الشخصية. وأصبح ثمة اندفاع مفاجئ لتكريم المتوفى اللامع. وهرعت وفود رسمية للمشاركة في التأبين، وأُحرقت جثته بناء على رغبته التي كان قد أعرب عنها في حياته، ووضع رماده في إناء مزخرف، وحُمل إلى مسقط رأسه، حيث دفن في مدافن العائلة.

هذا هو المصير الذي انتهت إليه حياة هذا الكاتب الذي ينتمي إلى ريو دي بلاتا، ونقول إنه ريوبلاتي لحل ذلك الخلاف غير المجدي حول ما إذا كان أروغوائياً أم أرجنتينياً. لقد أصبح الجميع يعترفون في السنوات الأخيرة بأنه أطول القصاصين قامة في الأدب الأمريكي اللاتيني المعاصر. وقد أطلق عليه بعضهم ـ بشيء من الإجحاف ـ لقب آلن بو أو كيبليغ الآداب الأمريكية اللاتينية، دون أن يلحظوا كيف شق طريقه الخاص في هذا الجنس الأدبي (القصة القصيرة): فهو لم يكن رومنسياً مثل بو، بل واقعياً. وبتطور أعماله

المتصاعد، توصل بصورة غير مباشرة إلى إبداع أجواء سرية ومرعبة، وقد فعل ذلك بقوة الإيحاء وبصيغ مقنعة ومتماسكة وقوية ومقتضبة، وهو أسلوب كان فيه معلماً لا يجارى. كما أنه لا وجود في أعماله لتلك اللامبالاة بمصير شخصياته، التي كثيراً ما نسبت إليه، لأن رقة صماء تجري في أعماق نفسه. وقد تمكن كذلك من جعل الأدب يخترق أدغال ميسيونيس العذراء، ليخرج بأعمال حافظت على حيويتها عبر الأزمان.

عند موته كانت قد بدأت بالظهور في بوينس آيرس اتجاهات أدبية جديدة. وكان المشرفون على مجلة «**جنوب**» ينظرون بشيء من الاستخفاف إلى ذلك الكاتب الفظ والنفور الذي يحبس نفسه في الأدغال النائية ويأتي من هناك بقصص يلتهمها قراء المجلات الشعبية بنهم. إن الاندفاعات الكونية التي حققها بعض أولئك الكتاب، لم تعد تتمتع بذلك التقدير الذي كانت تتمتع به في حينها. أما شهرة كيروغا فإنها تزداد اتساعاً يوماً بعد يوم، ويتحول إلى كلاسيكي لابد من العودة إلى أعماله ذات القيمة الخالدة.

فصل غرامي

ربيع

كان اليوم هو يوم ثلاثاء الكرنفال. وكان نيبيل قد دخل الموكب عند الغروب، وبينما هو يحل عقدة لفافة شريط ملون، نظر إلى العربة التي أمامه. واستغرب وجود وجه لم يكن قد رآه في الموكب مساء اليوم السابق، فسأل رفاقه:

ـ من تكون؟ يبدو أنها ليست قبيحة.

ـ يا للشيطان! إنها آية في الجمال. أظن أنها ابنة أخ الدكتور أريثابالاغا أو شيء من هذا القبيل. لقد وصلتْ أمس، وأظنها...

حدق نيبيل حينئذ في عيني تلك المخلوقة الجميلة. كانت ما تزال صغيرة السن، ربما لا تتجاوز الرابعة عشرة من عمرها، ولكنها كانت تبدو ناضجة للزواج. وكان لها، تحت شعرها الأسود القاتم، وجه فائق البياض.. من ذلك اللون الصافي الذي يقتصر توارثه على البشرات الراقية وحسب. وعينان زرقاوان تمتدان لتضيعا عند الصدغين وسط رموش سوداء. وربما كانتا متباعدتين قليلاً

تحت الجبهة المصقولة، مما يضفي لمسة نُبل أو عناد كبير. ولكن عينيها، في وضعهما ذاك، تملأا محيياها المزهر بنور حسنهما. وعندما أحس نيبيل بهما مصوبتان للحظة إلى عينيه، استولى عليه الانبهار.

ـ يا للفتنة! همس بذلك واجماً وقد أصبحت إحدى ركبتيه على وسادة عربته. وبعد لحظة من ذلك بدأت الأشرطة الورقية الملونة تطير نحو عربة الفتاة. فاتصلت العربتان بجسر ورقي معلق، وكانت الفتاة التي سببت ذلك الاضطراب تبتسم بين الحين والآخر للفتى المُغازِل.

وقد بلغ تمادي الفتى حداً فيه إساءة احترام لبعض الأشخاص والحوذيين، وحتى للعربات أيضاً: فقد كانت الشرائط الورقية الملونة تتساقط دون توقف، حتى أن الشخصين الجالسين في المقعد الخلفي من عربة الفتاة التفتا، وابتسما وهما يتفحصان باهتمام ذلك الفتى المبذر.

فسأل نيبيل بصوت خافت:

ـ من هما؟

ـ إنه الدكتور أريثابالاغا... أنت لا تعرفه بالفعل. والأخرى هي أم فتاتك... إنها أرملة شقيق الدكتور.

ولأن أريثابالاغا والسيدة، بعد نظرتهما المتفحصة، ابتسما

ابتسامة صريحة لذلك الشاب السخي، فقد رأى نيبيل أن من واجبه تحيتهما؛ وقد ردّ الثلاثي على التحية بلطف مرح.

كانت تلك هي بداية غرام دام ثلاثة شهور، استغرق فيه نيبيل بكل ما في عواطفه المراهقة من هيام. وبينما استمر الموكب، وهو يستمر في كونكورديا إلى ساعات غير معقولة، أبقى نيبيل ذراعه ممدودة إلى الأمام، حتى صار معصم قميصه المفلت يتراقص على كتفه.

وفي اليوم التالي تكرر المشهد نفسه، ولأن الموكب تجدد هذه المرة ليلاً وتضمن معارك بالزهور، فقد استهلك نيبيل في ربع ساعة أربع سلال ضخمة محملة بالورد. كان أرثيابالاغا والسيدة يضحكان ويكثران من الالتفات إليه، أما الفتاة فكانت لا تكاد ترفع عينيها عن نيبيل. ألقى هذا الأخير نظرة يائسة على سلاله الفارغة، وكانت ما تزال هناك على وسادة عربته باقة واحدة، باقة بائسة واحدة من ياسمين البلاد ومن زهرة الخلود. قفز نيبيل بها من فوق عجلة عربته، وكاد يخلع رسغ قدمه وهو يركض نحو عربة الفتاة لاهثاً ومبللاً بالعرق، والحماسة تشع من عينيه، وقدم الباقة إلى الصبية. فبحثت بدورها عن باقة أخرى وهي مضطربة، ولكنها لم تجد شيئاً. فضحك مرافقاها، وقالت لها أمها وهي تشير إلى صدرها:

ـ يالك من حمقاء! هنالك زهرة على صدرك!

كانت العربة تجري مسرعة. لكن نيبيل الذي كان قد نزل

مغموماً عن سلمها، عاود الركض ليمسك بالزهرة التي كانت تمدها إليه الفتاة ومعظم جسدها خارج العربة.

كان نيبيل قد جاء قبل ثلاثة أيام من بوينس ايرس، حيث كان ينهي دراسته الثانوية. وقد أمضى هناك ست سنوات، لذا فإن معرفته بالمجتمع الحالي في كونكورديا كانت ضئيلة جداً. وكان عليه أن يبقى خمسة عشر يوماً آخر في مسقط رأسه مستمتعاً براحة روحية على الأقل، إن لم تكن الراحة الجسدية ممكنة. وهاهو ذا يفقد صفاءه كله منذ اليوم الثاني. ولكن.. يا للفتنة!

ـ يا للفتنة! هذا ما كان يردده وهو يفكر بذلك الشعاع النوراني.. بزهرة الجسد الأنثوي الذي امتد إليه من العربة. وعرف بواقعية وعمق أنه مفتون ومحب بكل تأكيد.

وماذا عنها!... أتحبه؟ وفي بحثه عن جواب، كان نيبيل يثق بشعور الشابة غير الواعي وهي تبحث عن شيء تقدمه إليه، أكثر من ثقته بالزهرة التي انتزعتها عن صدرها. كان يستذكر بصفاء تام بريق عينيها حين رأته يصل إليها راكضاً، وقلقها الآمل الذي انتظرته به؛ ويستذكر في المقام الثاني الصدر الفتي البض وهي تمد إليه الزهرة.

والآن، هل انتهى كل شيء! ستذهب الفتاة في اليوم التالي إلى مونتفيديو. ولكن، ماذا يعنيه كل ماعداها؟ ماذا تعنيه كونكورديا،

وأصدقاءه السابقين، وأباه نفسه؟ سيذهب معها حتى بوينس ايرس على الأقل.

وقاما بالرحلة معاً بالفعل، وفي أثنائها وصل نيبيل إلى أقصى حدود الهيام التي يمكن لفتى عاشق في الثامنة عشرة أن يصل إليها وهو يشعر بأنه محبوب. واحتضنت أمها ذلك الغرام شبه الطفولي ببشاشة راضية، فكانت تضحك كلما رأتهما يتكلمان قليلاً، ويبتسمان دون توقف، ويحدق كل منهما بالآخر بنظرات لانهائية.

كان الوداع قصيراً، ذلك أن نيبيل لم يشأ أن يفقد آخر ما تبقى لديه من اتزان بمواصلة مطاردته لها.

سترجع هي وأمها إلى كونكورديا في الشتاء، ربما لبعض الوقت. هل سيذهب إليها هو أيضاً؟ «آووه، وكيف لا أعود!» وبينما كان نيبيل يبتعد ببطء على رصيف المرفأ، ملتفتاً في كل لحظة، كانت هي تستند بصدرها إلى الحاجز ورأسها إلى أسفل، تلاحقه بعينيها، بينما البحارة على سقالة الصعود يرفعون عيونهم مبتسمين لذلك الحب، ولفستان الخطيبة الفتية الذي ما يزال قصيراً.

صيف

في الثالث عشر من شهر حزيران رجع نيبيل إلى كونكورديا، وعلى الرغم من أنه علم بوجود ليديا هناك منذ اللحظة الأولى لوصوله، إلا أنه أمضى أسبوعاً دون أن يشعر بأي قدر من الاهتمام

بها. فأربعة شهور هي فترة كافية لنسيان عاطفة خاطفة. وكان لا يكاد يوجد في مياه روحه الساكنة سوى بريق أخير يحرك أنانيته. و... أجل، كان يشعر بشيء من الفضول لرؤيتها. وبقي على تلك الحال إلى أن وخز حدث تافه غروره، وسحبه مجدداً من وقاره. ففي يوم الأحد الأول بعد مجيئه، انتظر نيبيل، مثل أي فتى طيب في البلدة، في أحد الأركان عند الخروج من القداس. وأخيراً، وربما كانتا آخر الخارجين، تقدمت ليديا وأمها منتصبتين ونظرهما إلى الأمام بين الشبان الواقفين.

وعندما رآها نيبيل من جديد، أحس بأن عينيه قد اتسعتا لتبتلعا كامل صورتها المعبودة. وانتظر بقلق موجع اللحظة التي ستتعرف عيناها عليه وسط الجماعة في لمحة مباغتة لمفاجأة سعيدة.

ولكنها مرت بنظرتها الباردة المصوبة إلى الأمام.

وقال له صديق يقف بجانبه كان يتابع الواقعة:

- يبدو أنها لم تعد تتذكرك.

فابتسم هو:

- ليس كثيراً! وهذا مؤسف، لأن الفتاة تعجبني في الواقع.

ولكنه عندما أصبح وحيداً بكى نكبته بينه وبين نفسه. فالآن بعد أن عاد لرؤيتها! كيف، كيف أحبها وهو الذي ظن أنه لن يعود إلى تذكرها! أينتهي كل شيء! بوم، بوم، بوم! - وكان يردد دون أن ينتبه إلى نفسه: - بوم! انتهى كل شيء!

ثم يفكر فجأة: وماذا إذا كانت لم ترني؟... طبعاً!.. أجل، بالطبع! وشع الحماس في وجهه من جديد، وتمسك بهذا الاحتمال الغامض بقناعة عميقة.

وفي الساعة الثالثة كان يطرق بيت الدكتور أرثيابالاغا.

كانت فكرته بدائية: أستشير المحامي في أي قضية بلا معنى، وربما أراها في أثناء ذلك.

وكانت هي. فقد جاء الرد على صوت الجرس بخطوات راكضة في فناء البيت. ولكي توقف ليديا اندفاعها اضطرت إلى كبح نفسها بعنف عند الباب الزجاجي. لقد رأت نيبيل، فصرخت وأخفت بذراعيها الملابس الخفيفة التي كانت على جسمها، وهربت بسرعة أكبر من سرعتها في المجيء.

بعد لحظة من ذلك فتحت الأم باب مكتب المحامي، وأحاطت صديقها القديم بتواطؤ أكثر حيوية من ذاك الذي كانت تحيطه به قبل أربعة أشهر، فلم تعد السعادة تتسع لنيبيل. ولأن السيدة لم تبد أي قلق باهتمامات نيبيل القانونية، فقد فضل وجودها مليون مرة على وجود المحامي.

وبالرغم من كل ذلك، فقد أحس بأنه يجلس على جمرة من السعادة شديدة التوقد. ولأنه كان في الثامنة عشرة من عمره، فقد رغب في الانصراف فوراً ليستمتع على انفراد، ودون حياء، بسعادته العظيمة الغامرة.

فقالت له السيدة:

ـ بمثل هذه السرعة!... آمل أن نسعد برؤيتك ثانية... أليس كذلك؟

ـ آووه، أجل يا سيدتي!

ـ يسعدنا جميعنا مجيئك إلى البيت... جميعنا كما أظن! أتريد أن نستفسر؟ وابتسمت وهي تقول ذلك بسخرية أمومية.

فرد نيبيل:

ـ آووه، أتمنى ذلك من أعماق روحي!

ـ ليديا! تعالي لحظة! يوجد هنا شخص تعرفينه.

وجاءت ليديا عندما كان قد نهض واقفاً. وتقدمت للقاء نيبيل وعيناها تلمعان بالسعادة، ومدت إليه باقة كبيرة من البنفسج بارتباك محبب.

وتابعت الأم قائلة:

ـ يمكنك المجيء لزيارتنا كل اثنين. إذا كان ذلك لا يزعجك... ما رأيك؟

فرد الفتى:

ـ هذا قليل جداً يا سيدتي. سآتي في أيام الجمعة أيضاً... هل تسمحين لي؟

فانفجرت السيدة ضاحكة.

ـ كم أنت متعجل! لست أدري... لنر ما تقوله ليديا. ما رأيك ياليديا؟

الفتاة التي لم ترفع عينيها الضاحكتين عن نيبيل، قالت «نعم!» وهي تنظر إلى وجهه، لأن الجواب كان من حقه.

ـ حسن. إلى اللقاء يوم الاثنين يانيبيل.

فقال نيبيل:

ـ ألا تسمحين لي بالمجيء هذه الليلة؟ فهذا اليوم هو يوم استثنائي...

ـ حسن! الليلة أيضاً! رافقيه يا ليديا.

ولكن نيبيل الذي كان مدفوعاً بجنون إلى الحركة، ودعهما هناك بالذات وفر بباقة أزهاره التي كان عقبها قد تفتت تقريباً، وبروحه التي كانت في أعلى سماوات السعادة.

II

على امتداد الشهرين التاليين تولع نيبيل وليديا أحدهما بالآخر، وكانا يزدادان هياماً كل لحظة يجتمعان فيها معاً وفي الساعات التي يقضيانها وأحدهما بعيد عن الآخر. فنيبيل الرومنطيقي إلى درجة الإحساس بالكآبة التي يسببها مطر يجعل الفناء رمادياً، كان يرى في تلك المخلوقة بوجهها الملائكي وعينيها الزرقاوين ونضوجها المبكر، تجسيداً للمثالية القصوى. وكان نيبيل في نظر الفتاة شاباً

طيباً وذكياً وجريئاً. ولم تكن هناك أي سحابة في حبهما باستثناء صغر سن نيبيل. وقد نسي الفتى دراسته وشهادته وكل الأشياء الأخرى التافهة، ورغب في الزواج. فقد تأكد له أنه ليس هناك سوى أمرين: فهو لن يستطيع العيش **مطلقاً** دون ليديا، وسوف يواجه كل من يعترض على ذلك. وكان يحدس ـ أو أنه بكلمة أدق، كان يشعر ـ بأنه سيفشل فشلاً مدوياً.

وبالفعل، فإن أباه الذي استاء بعمق للسنة التي ضيعها نيبيل من أجل غرام كرنفالي، كان عليه أن يضع النقاط على الحروف بصرامة رهيبة. ففي أواخر شهر آب تحدث إلى ابنه بصورة حاسمة:

ـ قيل لي أنك ما تزال تواصل زياراتك إلى بيت آل أريثابالاغا. هل هذا صحيح؟ لأنك لا تتكرم بقول كلمة واحدة لي من تلقاء نفسك.

ورأى نيبيل العاصفة كلها في ذلك الأسلوب الوقور، فارتعش صوته قليلاً حين أجاب:

ـ إذا كنت لم أخبرك بشيء يا أبتاه، فلأنني أعرف أنه لا يعجبك أن أتحدث إليك بهذا الأمر.

ـ ياه! بالنسبة لما يعجبني يمكنك بالفعل أن توفر على نفسك مشقة الحديث... ولكنني أريد أن أعرف الوضع الذي أنت فيه. هل تذهب إلى ذلك البيت باعتبارك خطيبها؟

ـ أجل.

ـ وهل يستقبلونك رسمياً بهذه الصفة؟

ـ أظن ذلك...

نظر إليه الأب بثبات وضرب على الطاولة.

ـ جيد! جيد جداً!... اسمعني جيداً، لأن الواجب يفرض علي أن أبين لك الطريق. هل تعرف جيداً ما الذي تفعله؟ هل فكرت بما يمكن أن يحدث؟

ـ يحدث؟... ماذا؟

ـ أن تتزوج من هذه الفتاة! ولكن انتبه: إنك في سن يمكنك فيها التفكير على الأقل. هل تعرف من هي؟ من أين تأتي؟ هل تعرف أحداً يعرف الحياة التي تعيشها في مونتيفيديو؟

ـ أبتاه!

ـ أجل، ما الذي تفعلانه هناك! ياه! لاتُظهر هذا الوجه... لست أعني... خطيبتك. إنها طفلة، وهي لا تعرف ما الذي تفعله. ولكن، هل تعرف مم تعيشان؟

ـ لا! ولا يهمني معرفة ذلك، ومع أنك أبي...

ـ كفى، كفى! دع هذا إلى ما بعد. لست أحدثك كأبٍ، وإنما كأي رجل نزيه يمكن أن يتحدث إليك. وبما إن ما أسألك إياه يثير حفيظتك كثيراً، فابحث بنفسك عمن يحدثك عن الحياة التي تعيشها أم خطيبتك مع شقيق زوجها، اسأل!

ـ نعم! أعرف أنها كانت...

ـ آه! هل تعرف أنها كانت عشيقة أرثابالاغا؟ وأنه هو وآخرون يتحملون نفقات بيتها في مونتيفيديو؟ وتبقى بهذا البرود!

!...

ـ أجل، أعرف أنه لا علاقة لخطيبتك بكل ذلك، أعرف هذا!... ولكن، عليك أن تكون حذراً، لأنك قد تصل متأخراً... لا، لا، اهدأ! ليس في نيتي الإساءة إلى خطيبتك، وكما قلت لك، أظن أنها لم تتلوث بعد بالعفن الذي يحيط بها. ولكن إذا كانت الأم تريد أن تبيعك إياها في صفقة زواج، أو من أجل الثروة التي سترثها عني بعد موتي، فقل لها إن العجوز نيبيل ليس مستعداً لهذا النوع من التجارة وإنه يفضل أن يذهب مع الشيطان قبل أن يوافق على هذا الزواج. وليس لدي ما أقوله لك غير هذا.

كان الفتى يحب أباه كثيراً على الرغم من طباع الأب؛ فخرج ممتلئاً بالغيظ لأنه لم يستطع التنفيس عن غضبه، وهو غضب عنيف بالقدر الذي يعرف أنه غير عادل. فهولا يجهل منذ بعض الوقت أن أم ليديا كانت عشيقة أراثابالاغا في حياة زوجها، وأنها مازالت كذلك بعد أن مضت أربع أو خمس سنوات على وفاته. إنهما يلتقيان في فترات متباعدة، ولكن المحامي العجوز المتهتك، والذاوي الآن في تصلب شرايينه كعانس مريض، أبعد ما يكون عما يرغب في أن يكونه بالنسبة لزوجة أخيه؛ وإذا كان يحافظ على

قطار الأم والابنة سائراً، فإنما يفعل ذلك بامتنان العاشق السابق، ولكي يضفي شيئاً من المصداقية على الأقاويل الحالية التي ترضي غروره الباطل.

راح نيبيل يستحضر ذكرى الأم في ذاكرته؛ وبارتعاش فتى مجنون من النساء المتزوجات، تذكر أنه بينما كان يتصفح مجلة مصورة في إحدى الليالي، أحس في أعصابه التي تيبست فجأة بأبخرة الشهوة تتصاعد من الجسد الذي يحتك به. وحين رفع عينيه، رأى نظرتها مسلطة بثقل على عينيه.

هل أخطأ الظن يومذاك؟ لقد كانت امرأة هستيرية رهيبة، تنتابها بعض النوبات الانفجارية؛ حيث تدق أعصابها مثل أجراس في داخلها، وهذا هو سبب عنادها المرضي المفاجئ، وتخليها المباغت عن إحدى قناعاتها الراسخة؛ وفي أتون تلك النوبات، يزداد عنادها التشنجي المشيد بكتل ضخمة من اللامعقول. وكانت تسيء استعمال مهدئات المورفين بدافع الحاجة الملحة حيناً والتباهي أحياناً. إنها في السابعة والثلاثين؛ وهي طويلة القامة، لها شفتان سميكتان ومتوقدتان تبللهما بلسانها على الدوام. ومع أن عينيها غير كبيرتين، إلا أنهما كانتا تبدوان كذلك بسبب رموشهما الطويلة جداً، ولكنهما عينان باهرتان من ظل ولهيب. وكانت تتجمل. وتلبس بذوق رفيع مثل ابنتها، وقد كانت ابنتها بالذات هي إغواءها الكبير بكل تأكيد. لابد أنها كانت ذات سحر عميق كامرأة؛

ولكن الهستيريا قد فعلت دون ريب مفعولها في جسدها ـ خصوصاً وأنها مصابة بداء في بطنها ـ فعندما ينقضي مفعول مهدئ المورفين، ينطفئ بريق عينيها، وتظهر عند طرف شفتيها وفي جفنيها شبكة خفيفة من التجعدات. ولكن الهستيريا نفسها التي تتلف أعصابها، كانت مع ذلك هي الغذاء السحري الذي يعزز اعتدادها بنفسها.

كانت تحب ليديا بعمق، ومثل البرجوازيات الهستيريات، كانت مستعدة لإنزال ابنتها إلى الحقارة من أجل إسعادها، أي لتقدم لها ذلك الشيء الذي وفر لها هي نفسها السعادة.

ولهذا فإن مخاوف أبي نيبيل في هذا الشان كانت تلمس أعمق أوتار قلبه العاشق. كيف أمكن لليديا أن تفلت؟ فنقاء بشرتها، وصفاء عاطفتها الفتية التي تبرز بانطلاق معبود من عينيها اللامعتين، لم تكن دليلاً على الطهارة وحسب، وإنما هي سلّم من المتعة النبيلة يتسلقه نيبيل ظافراً لينتزع الزهرة التي تناديه من وسط النبتة المتعفنة.

لقد كانت هذه القناعة طاغية إلى حد لم يفكر نيبيل معه في أن يقبلها مطلقاً. ففي عصر أحد الأيام، بعد تناول الغداء، أحس نيبيل برغبة مجنونة في رؤيتها وهو يمر أمام بيت آل اريثابالاغا. وقد اكتملت سعادته تماماً، ذلك أنه وجدها وحدها بثوب بيتي وشعرها المشعث على خديها. ولآن نيبيل حاصرها عند الجدار، فقد

استندت إلى الحائط وهي تضحك وتلهث. وحين لمس الشاب جبهتها أحس في يده الخامدة بالسعادة القصوى لحب طاهر، كان من السهل عليه أن يلوثه في تلك اللحظة.

ولكن ذلك سيأتي فيما بعد، عندما تصبح زوجته! وكان نيبيل يبحث عن أي سبيل يمكّنه من التسريع في الزفاف. فبلوغه سن الرشد في تلك الأيام، كان يتيح له مواجهة النفقات من حصته الشرعية من ميراث أمه. ولم يبق عليه سوى الحصول على موافقة الأب، أما أم الفتاة فكانت تستعجل هذا الحدث.

لقد كان وضعها الخاطئ جداً في كونكوريا يتطلب عقوبة اجتماعية ستبدأ بكل تأكيد على يد حميّ ابنتها المستقبلي. وكانت هي ترغب بشدة في إذلال وإهانة العرف الأخلاقي البرجوازي، وإركاعه أمام ذلك الوضع الخاطئ الذي كان يزدريه.

وكانت قد لامست هذه النقطة عدة مرات مع صهرها المستقبلي بالتحدث عن «صهري»... «أسرتي الجديدة»... «شقيقة زوج ابنتي». فكان نيبيل يصمت، بينما تتقد عينا الأم بنيران أشد توقداً.

وبقي الوضع على تلك الحال إلى أن علا اللهيب. وكان نيبيل قد حدد يوم الثامن عشر من تشرين الأول للزفاف. وكان ما يزال هناك شهر على الموعد، ولكن الأم أفهمته بوضوح أنها تريد حضور والده في هذه الليلة بالذات.

فقال نيبيل بعد صمت معذب:

ـ سيكون ذلك صعباً. إن الخروج ليلاً يتعبه كثيراً... إنه لا يخرج مطلقاً في الليل.

فقالت الأم وهي تعض شفتها بسرعة:

ـ آه!

وتلا ذلك فترة صمت أخرى، ولكنه صمت يحمل النذر هذه المرة. ثم قالت:

ـ ولكنك لن تتزوج سراً، أليس كذلك؟

ابتسم نيبيل بمشقة:

ـ آووه! أبي لا يريد ذلك أيضاً.

ـ إذن؟

صمتٌ آخر أكثر توتراً هذه المرة.

ـ هل السيد والدك يرفض المجيء بسببي؟

فصرخ نيبيل أخيراً بفقدان صبر:

ـ لا، لا يا سيدتي. إنها طريقته في الحياة... سأكلمه مرة أخرى، إذا كنت ترغبين.

ـ إذا كنت أرغب؟ ـ ابتسمت الأم وأنفها يرتعش: ـ اجعله يقتنع... هل تريد الذهاب الآن يانيبيل؟ أشعر بأنني لست على ما يرام.

خرج نيبيل وهو مستاء جداً. ما الذي سيقوله لأبيه؟ إنه متمسك

بإصراره على رفض هذا الزواج، وكان الابن قد اتخذ الإجراءات اللازمة للاستغناء عن موافقة الأب.

ـ يمكنك عمل هذا وكل ما ترغب فيه. أما الحصول على موافقتي لتكون تلك اللعوب حماتك فمستحيل!

بعد ثلاثة أيام من ذلك قرر نيبيل أن يضع حداً حاسماً لتلك الحال، وانتهز لذلك لحظة لم تكن ليديا موجودة فيها.

بدأ نيبيل الكلام:

ـ لقد تحدثت مع والدي، وقد قال أنه من المستحيل عليه الحضور.

بدا قليل من الشحوب على الأم، بينما اتسعت عيناها في وميض مفاجئ حتى بلغتا وجنتيها:

ـ آه! ولماذا؟

فرد نيبيل بصوت أصم:

ـ لا أدري.

ـ هذا يعني... أن السيد والدك يخشى أن يتلوث إذا ما جاء إلى هنا.

فكرر بعناد أيضاً:

ـ لا أعرف!

ـ أهي إهانة مجانية يوجهها إلينا السيد؟ ماذا يظن نفسه؟ ـ ثم

أضافت بصوت متهدج وشفتين مرتعشتين: ـ من يكون هو ليتكلم بهذه اللهجة؟

عندئذ أحس نيبيل بحرقة ردة الفعل في أعماق مشاعره الأسرية. فرد بصوت متعجل بدوره:

ـ لست أدري ما يعنيه ذلك! ولكنه لا يرفض المجيء فقط، وإنما يرفض إعطاء موافقته أيضاً.

ـ ماذا؟ ماذا يرفض؟ ولماذا؟ من يكون هو؟ أهو الأكثر جدارة بذلك!

نهض نيبيل واقفاً:

ـ أرجو ألا...

ولكنها كانت قد نهضت هي أيضاً:

ـ بلى، بلى! أنت ما تزال طفلاً! اسأله من أين جنى ثروته، المسروقة من زبائنه! ويأتيني بهذه المظاهر! أسرته النقية، غير الملطخة، ويقول ذلك بملء فيه! أسرته!... اطلب منه أن يخبرك كم جداراً كان يقفز لكي يذهب للنوم مع امرأته قبل أن يتزوجها! أجل، ويأتي الآن للتحدث عن أسرته!... حسن، انصرف من هنا؛ لقد فاض بي من النفاق! وأتمنى لك حظاً سعيداً!

III

أمضى نيبيل أربعة أيام في أشد حالات اليأس. ما الذي يمكنه أن يأمل به بعد الذي حدث؟ في اليوم الخامس، عند الغروب، تلقى رسالة قصيرة:

«أوكتافيو: ليديا مريضة جداً، وحضورك فقط يمكن أن يهدئها.

ماريا س. أريثابالاغا».

إنها مكيدة، ليس لديه أي شك في ذلك. ولكن إذا ما كان صحيحاً أن ليدياه...

ذهب في تلك الليلة واستقبلته الأم برصانة أدهشت نيبيل؛ دون بشاشة مفرطة، ولكن بمشاعر المذنبة التي تطلب الاعتذار.

ـ إذا كنت تريد رؤيتها...

دخل نيبيل مع الأم، ورأى محبوبته المعبودة في السرير، وجهها بتلك النداوة الخالية من المساحيق التي تضفها سنوات عمرها الأربع عشرة وحسب، وساقاها مثنيتان.

جلس إلى جانبها، وانتظرت الأم دون طائل أن يقول شيئاً؛ وكان كل ما فعله أنه راح ينظر إليها ويبتسم.

وفجأة أحس نيبيل أنه معها على انفراد، وبدت لمخيلته صورة الأم بوضوح: «لقد انصرفتْ آملة أن أفقد رشدي في فرحة حبي المستعاد، ليكون الزواج عندئذ إجبارياً». ولكن في ربع الساعة هذا

من المتعة التي يعرضونه عليه مقدماً مقابل سند مؤجل بالزواج، جعل الفتى ذا الثمانية عشر عاماً يشعر. مثلما شعر يوماً قبالة الجدار. بالمتعة التي لا تشوبها أدنى شائبة للحب الطاهر في كل هالة غرامه الشاعري.

الشيء الوحيد الذي استطاع نيبيل أن يقوله هو كلام عن مدى سعادته المستردة بعد الغرق. ونسي هو أيضاً ما كان في انفجار الأم من افتراءات، ومن تلهف ساخط لشتم من لا يستحقون الشتم. ولكنه كان قد صمم على إبعاد الأم من حياته بعد إتمام الزواج. وكانت ذكرى خطيبته الغضة الطاهرة الضاحكة في فراشها، تشعل فيه الوعد بشهوانية كاملة لم يسرق منها مقدماً أدنى قدر من الدر.

حين وصل نيبيل في الليلة التالية إلى بيت آل أريثابالاغا، وجد الدهليز مظلماً. وبعد انتظار طويل فتحت الخادمة النافذة. فسألها مستغرباً:

ـ هل خرجتا؟

ـ لا، ستذهبان إلى مونتيفيديو... لقد ذهبتا إلى «أيل سالتو» لتقضيا الليلة في السفينة.

ـ آه! تمتم نيبيل بذلك مذعوراً. وكان ما يزال لديه بعض الأمل.

ـ والدكتور؟ هل يمكنني التحدث إليه؟

ـ غير موجود؛ لقد ذهب إلى النادي بعد الغداء...

وما إن أصبح نيبيل في الشارع المظلم حتى رفع ذراعيه

وتركهما تهويان بخمود فانٍ. لقد انتهى كل شيء! سعادته التي استردها في اليوم السابق، ضاعت مجدداً وإلى الأبد! وأحس بأنه لم تعد هناك في هذه المرة إمكانية للتراجع. فأعصاب الأم قد انفلتت بجنون، ولم يعد بإمكانه عمل أي شيء.

مشى حتى الناصية، وبقي هناك جامداً تحت مصباح النور يتأمل البيت الوردي بثبات أحمق. وقام بالدوران حول كتلة المبنى، ثم رجع للوقوف تحت عمود النور. إلى الأبد، إلى الأبد!

وبقي على تلك الحال حتى الساعة الحادية عشرة والنصف. وأخيراً مضى إلى بيته وشحن المسدس، ولكن تذكر أمراً أوقفه: فقبل شهور كان قد عاهد رساماً ألمانياً ـ وكان نيبيل مراهقاً بأن يذهب لمقابلته قبل أن ينتحر. فقد كانت تربطه بالعسكري العجوز غيلليرم صداقة حية، ترتكز إلى مناقشات فلسفية طويلة.

وفي اليوم التالي، منذ الصباح الباكر، كان نيبيل يطرق باب غرفة ذلك الرجل البائسة. وكانت ملامح وجهه تعبر عن حالته تماماً.

ـ أنت مصمم الآن؟ سأله ذلك الصديق الأبوي وهو يشد على يده بقوة.

فرد الفتى وهو ينظر جانباً:

ـ بست! على أي حال!...

عندئذ روى له الرسام بهدوء عظيم مأساة حبه. ثم أنهى كلامه قائلاً:

ـ اذهب إلى بيتك، وإذا أنت لم تبدل رأيك حتى الساعة الحادية عشرة، فارجع إلي لكي نتغدى معاً. وبعد ذلك افعل ما تشاء. هل تعاهدني؟

ـ أعاهدك. أجابه نيبيل وهو يرد على معانقته الحميمة وبه رغبة في البكاء.

وفي بيته كانت تنتظره بطاقة مرسلة من ليديا:

«معبودي أوكتافيو: إنني في يأس لا يتسع للمزيد؛ ولكن أمي رأت أنني إذا تزوجت منك، فسوف ألاقي آلاماً عظيمة؛ وقد أدركت، مثلها، أن أفضل حل هو انفصالنا، وأقسم لك أنني لن أنساك مطلقاً.

حبيبتك

ليدا».

ـ آه، لابد أن الأمر جرى على هذا النحو! ـ صرخ الفتى، وهو يرى في الوقت نفسه وجهه الذي تبدلت ملامحه في المرآة. فالأم هي التي أوحت لها بالرسالة، هي وجنونها اللعين! ولم يكن بوسع ليديا إلا أن تكتب، ولابد أن الفتاة المسكينة كانت تتألم وتبكي حبها وهي تحرر الرسالة ـ آه! لو أنني أستطيع أن أراها يوماً، وأن أقول لها كم أحببتها، وكم أحبها، يا لمعبودة قلبي!...

مضى مرتعشاً نحو الكوميدينو وتناول المسدس؛ ولكنه تذكر وعده الجديد، فبقي واقفاً هناك لوقت طويل، ينظف بظفره بإصرار لطخة تلوث طاحونة المسدس.

خريف

في مساء أحد الأيام في بوينس ايرس، وكان نيبيل قد صعد إلى الترام حين توقفت العربة لحظة أكثر من المعتاد، فرفع نيبيل الذي كان يقرأ، رأسه أخيراً. ورأى امرأة تتقدم بخطوات بطيئة ومتثاقلة بين المقاعد. وبعد نظرة سريعة على تلك الإنسانة المتعبة، عاد نيبيل إلى قراءته. جلست السيدة إلى جانبه، وحين فعلت ذلك نظرت باهتمام إلى جارها في المقعد. ومع أن نيبيل كان يشعر بين الحين والآخر بالنظرات الغريبة المسلّطة عليه، إلا أنه واصل قراءته؛ ولكنه ملّ ذلك أخيراً ورفع رأسه مستغرباً.

عندئذ هتفت السيدة:

ـ لقد بدا لي أنك أنت، مع أنني مازلت مترددة... أنت لا تتذكرني، أليس كذلك؟

ـ بلى ـ أجابها نيبيل وهو يفتح عينيه على اتساعهما ـ أنت السيدة اريثابالاغا...

رأت المرأة دهشة نيبيل، فابتسمت ابتسامة مومس عجوز تريد الظهور بمظهر لائق أمام شاب فتي.

لم يبق فيها مما كانت عليه ـ حين عرفها نيبيل قبل أحد عشر عاماً. إلا عينيها، بالرغم من أنهما قد غارتا كثيراً وانطفأ بريقهما. أما البشرة الصفراوية المائلة إلى الخضرة في الظلال، فكانت مشققة في أثلام مغبرة. والوجنتان أصبحتا بارزتين الآن، بينما تحاول الشفتان المكتنزتان، مثلما كانتا دائماً، أن تخفيا أسناناً منخورة تماماً. وتحت الجسد المنهوك يبدو بوضوح سريان المورفين ما بين الأعصاب التالفة والشرايين المائية الذي حوّل تلك المرأة المتأنقة التي نظرت يوماً إلى المجلة المصورة بجانبه، إلى هذا الهيكل العظمي المتهالك.

ـ أجل لقد هرمتُ كثيراً... ومرضتُ. لقد أصبتُ بنوبات كلوية... وأنت ـ أضافت وهي تنظر إليه بعذوبة ـ مازلت على حالك! أنت لم تبلغ الثلاثين بعد، أليس كذلك؟... ليديا مازالت على حالها أيضاً.

رفع نيبيل عينيه.

ـ عازبة؟

ـ أجل... كم ستفرح حين أخبرها! لماذا لا تسعد هذه المسكينة بزيارتها؟ ألا ترغب في الذهاب لزيارتنا؟

فتمتم نيبيل:

ـ يسعدني ذلك...

ـ أجل، عليك أن تأتي بأسرع وقت؛ فأنت تعرف ما الذي كنته بالنسبة إلينا.. عنواننا هو بويدو ١٤٨٣، الشقة ١٤... وضعنا بائس جداً...

ـ آووه! قال محتجاً، ونهض لينصرف. ووعدها بالذهاب قريباً.

بعد اثني عشر يوماً من ذلك، كان على نيبيل أن يعود إلى معصرة قصب السكر التي يملكها، وقبل أن يغادر أراد أن يفي بوعده. فذهب إلى هناك ـ بيت بائس على مشارف المدينة ـ وقد استقبلته السيدة أريثابالاغا، بينما كانت ليديا ترتب نفسها قليلاً.

ـ إحدى عشرة سنة إذن ـ قالت الأم ـ كيف يمر الزمن! كان بإمكانك أنت وليديا أن تنجبا الكثير من الأولاد خلال هذا الوقت!

فابتسم نيبيل وهو يتلفت فيما حوله:

ـ بكل تأكيد.

ـ آووه! لسنا على ما يرام! خصوصاً إذا ما فكرت كيف يجب أن يكون بيتك... إنني أسمع دائماً عن مزارع قصب السكر التي تملكها... أهي أملاكك الوحيدة؟

ـ أجل... وهناك مزارع أخرى في انتري ريوس كذلك...

ـ يا للسعادة! يمكن للمرء... دائماً أتمنى لو أستطيع قضاء بضعة شهور في الريف، ولكنها تبقى أمنية وحسب!

صمتت وهي تلقي نظرة خاطفة على نيبيل. كان هذا الأخير يضغط قلبه مستعيداً بصفاء انطباعاته المدفونة في روحه منذ إحدى عشرة سنة.

ـ وكل هذا بسبب انعدام العلاقات... من الصعب جداً إقامة صداقات ونحن في مثل هذا الوضع!

كان قلب نيبيل يخالفه أكثر فأكثر، وفي أثناء ذلك دخلت ليديا.

وكانت هي قد تغيرت أيضاً، لأن فتنة وسذاجة وطزاجة سن الرابعة عشرة لا يمكن العثور عليها في امرأة في السابعة والعشرين. ولكنها مازالت جميلة مثلما كانت دائماً. وأحس بإحساسه الرجولي في جيدها البض، وفي هدوء نظرتها الوديعة، وفي كل لا مبالاتها التي تكشف للرجل عن الحب الذي نعم به، بأنه لابد له من أن يحتفظ إلى الأبد بذكرى ليديا التي عرفها.

تحدثا في أمور مختلفة بالرصانة الكاملة التي يبديها الأشخاص الناضجون. وعندما خرجت هي للحظة، جددت الأم حديثها:

ـ أجل، إنها ضعيفة قليلاً... وحين أفكر في أنها ستسترد عافيتها تماماً في الريف... انظر يا أوكتافيو: أتسمح لي بأن أكون صريحة معك؟ أنت تعلم أنني أحببتك مثل ابن لي... ألا يمكننا قضاء فترة في مزرعتك؟ كم سيكون ذلك مفيداً لليديا!

فرد نيبيل:

ـ إنني متزوج.

بدا أن ملامح السيدة قد اختلفت تماماً، وكانت خيبة أملها صريحة للحظة؛ ولكنها ما لبثت أن قاطعت يديها المضحكتين:

ـ أنت متزوج! يا للنكبة، يا للنكبة! أعذرني، فأنت تعلم!... لا أعرف ماذا أقول... وهل تعيش زوجتك معك في مزارع القصب؟

ـ أجل، إنها تعيش معي عادة... أما الآن فهي في أوربا.

ـ يا للأسف! أعني... يا أوكتافيو! ـ وأضافت وهي تفتح ذراعيها وقد بدت الدموع في عينيها:. أستطيع أن أخبرك بالحقيقة، فقد كنتَ بمقام ابني... إننا في وضع أدنى من البؤس! لماذا لا تريد الذهاب مع ليديا؟ سأكون صريحة معك كأم. ـ ثم قالت وهي ترسم ابتسامة واسعة وتخفض صوتها: ـ أنت تعرف جيداً قلب ليديا، أليس كذلك؟

انتظرتْ جواباً؛ ولكن نبيل بقي صامتاً.

ـ أجل، أنت تعرفها! وهل تظن أن ليديا قادرة على نسيان حبها؟

وقد عززت تلميحها الآن بغمزة بطيئة. وقدر نبيل عندئذ دفعة واحدة عمق الهوة التي كان سيسقط فيها من قبل. إنها الأم نفسها؛ ولكنها أشد حقارة بسبب شيخوخة روحها، وبفعل المورفين والفقر. أما ليديا... فما إن رآها مرة أخرى حتى ارتعش وأحس بضربة عنيفة من الرغبة في المرأة الحالية ذات الحنجرة الممتلئة.

وحيال الصفقة المعروضة عليه، ألقى نفسه بين ذراعي تلك المغامرة التي أعدها له القدر.

ـ ألا تعرفين يا ليديا؟ ـ قالت الأم بصخب احتفالي حين رجعت ابنتها ـ أوكتافيو يدعونا لقضاء فترة في مزرعته. ما رأيك؟

ظهر اضطراب عابر على حاجبي ليديا، ولكنها استعادت وقارها وقالت:

ـ هذا جيد يا أماه...

ـ آه! أنت لا تعرفين؟ إنه متزوج.

التفتت ليديا عندئذ ناظرة مباشرة إلى عيني نيبيل، وتطلعت إليه للحظة بحرج مؤلم. ثم دمدمت:

ـ منذ متى؟

فرد بصوت خافت:

ـ أربع سنوات.

وبالرغم من كل شيء، فإنه لم يجد ما يكفي من الحماسة للنظر إليها.

شتاء

لم يقوموا بالرحلة في القطار معاً بسبب مخاوف نيبيل من الظهور معهما في خط يعرفونه فيه جيداً؛ ولكنهم لدى الخروج من

المحطة صعدوا معاً في عربة البيت الخاصة. وكان من عادة نيبيل كلما بقي وحده في بيت المزرعة ألا يستبقي من الخدم سوى هندية عجوز، ذلك أن زوجته، فضلاً عن زهده، كانت تأخذ معها كل الخدم. وهكذا فقد قدم مرافقتيه إلى الخادمة المخلصة على أنهما خالة عجوز وابنتها، وأنهما آتيتان لاسترداد عافيتهما.

ولم يكن هناك ما هو أقرب إلى التصديق، ذلك أن صحة السيدة كانت تتردى بصورة دوارية. فقد وصلت منهوكة، تمشي بخطوات غير واثقة ومتثاقلة، وكان وجهها المتلهف إلى المورفين، بعد أن ضحت به أربع ساعات نزولاً عند رغبة نيبيل، يطلب صارخاً جرعة تسري في تلك الجثة الحية.

إن نيبيل الذي قطع دراسته بعد موت أبيه كان يعرف جيداً أنه لابد له من تفادي كارثة مفاجئة؛ فكلية المرأة المصابة قد تتعرض أحياناً لتوقفات خطرة، والمورفين يعجل من مثل هذه الحالات.

ولكنهم ما إن أصبحوا في العربة، حتى نظرت السيدة التي لم تعد قادرة على التحمل إلى نيبيل بجزع مكروب:

ـ اسمح لي يا أوكتافيو... لم أعد أستطيع التحمل! قفي أمامي يا ليديا.

أخفت الابنة أمها قليلاً بهدوء، وسمع نيبيل خشخشة الثياب وهي ترتفع بعنف لتحقن المرأة فخذها.

توهجت عيناها، وغطت ذلك الوجه الاحتضاري حيوية مفاجئة وتامة مثل قناع.

ـ أنا الآن على ما يرام... يا للروعة! أشعر بأنني على ما يرام.

فقال نيبيل بقسوة وهو ينظر إليها مواربة:

ـ عليك أن تتخلي عن هذا كله. ما إن نصل حتى تكون حالتك قد ساءت أكثر.

ـ أوه، لا! أفضل الموت الآن على ذلك.

أمضى نيبيل النهار كله مستاء، وقرر أن يتفادى ما أمكن النظر إلى ليديا وأمها إلا باعتبارهما امرأتين مريضتين بائستين. ولكن حين حل المساء، وكما الضواري التي تبدأ في هذا الوقت بشحذ مخالبها، بدأ الشبق الذكري يلين خاصرته في ارتعاشات شهوانية.

تناولوا الطعام باكراً، ذلك أن الأم المحطمة رغبت في النوم بسرعة. ولم تكن هناك وسيلة لجعلها تشرب الحليب.

ـ ياللقرف! لا أستطيع ابتلاعه. تريدني أن أضحي بآخر سنوات حياتي، بعد أن صار بإمكاني الآن أن أموت مطمئنة؟

لم ترمش ليديا حيال ذلك. وكانت قد تبادلت مع نيبيل كلمات قليلة، وبعد تناول القهوة فقط صوب نظره على عينيها، ولكن ليديا غضت بصرها فوراً.

بعد أربع ساعات من ذلك كان نيبيل يفتح بهدوء باب غرفة ليديا. فرن صوتها المرتبك فجأة:

ـ من هناك!

فتلعثم نيبيل:

ـ إنني أنا.

وتلت كلماته حركة ملابس، كما لو أن شخصاً ينهض جالساً في السرير فجأة، ثم خيم الصمت من جديد. ولكن عندما لمست يد نيبيل في العتمة ذراعاً ليناً، اهتز الجسد كله في ارتعاشة عميقة.

....

بعد ذلك، وبينما هو ساكن إلى جوار تلك المرأة التي كانت قد عرفت الحب قبل أن يصل هو، صعد من أعمق أغوار روح نيبيل فخر مراهقته المقدس بأنه لم يلمس مطلقاً، ولم يسرق ولو قبلة واحدة من الطفلة التي كانت تنظر إليه بسذاجة مشعة. وفكر بكلمات ديستوفسكي التي لم يكن قد فهم معناها حتى ذلك الحين: «ليس هناك ما هو أجمل من ذكرى طاهرة، وليس هناك ما يُصلّب المرء في الحياة أكثر منها». وقد احتفظ نيبيل بهذه الذكرى نقية طاهرة لا تشوبها شائبة كنقائه في الثامنة عشرة من عمره، بينما هو يجلس الآن هناك، ملوثاً حتى رأسه، على سرير خادمة.

أحس عندئذ بدمعتين ثقيلتين، صامتتين على عنقه. إنها تتذكر بدورها... وتواصلت دموع ليديا واحدة بعد أخرى، مضمخة النهاية الفظيعة لحلم سعادتها الوحيد.

IV

استمرت الحياة المشتركة عشرة أيام، بالرغم من أن نيبيل كان يقضي معظم اليوم في الخارج. فباتفاق ضمني كان لا يلتقي مع ليديا على انفراد إلا قليلاً؛ ومع أنهما كانا يعودان للقاء ليلاً، إلا أنهما كانا يقضيان معاً وقتاً طويلاً وهما صامتين.

لقد كان لدى ليديا عمل كثير تقوم به في رعاية أمها المنهوكة القوى. ولأنه لم يكن ثمة مجال لترميم ما قد تعفن، فقد فكر نيبيل بوقف المورفين عنها، بالرغم من الخطر المباشر الذي يسببه ذلك. ولكنه امتنع عن ذلك حين دخل في صباح أحد الأيام إلى المطبخ فجأة، وباغت ليديا وهي تُنزل تنورتها بسرعة. كانت تحمل الحقنة في يدها، وتنظر إلى نيبيل بعينيها المذعورتين.

سألها أخيراً:

ـ أتتعاطينه منذ زمن طويل؟

فتلعثمت ليديا وهي تلوي الإبرة بعصبية:

ـ أجل.

نظر إليها نيبيل ملياً وهز كتفيه.

مع ذلك، ولأن الأم صارت تكرر الحقن بفواصل متقاربة جداً لتخمد آلام كليتها، حتى أوشك المورفين على قتلها، صمم نيبيل على محاولة إنقاذها من تلك النكبة، وسحب المخدر منها.

توسلت إليه بحشرجة ضارعة:

ـ اوكتافيو! ستقتلني! لا يمكنني العيش يوماً واحداً!

فرد عليها نيبيل:

ـ إذا أعطيتك هذه العقاقير فلن تعيشي ساعتين!

ـ ليس مهماً يا عزيزي أوكتافيو! أعطني إياه، أعطني المورفين!

ترك نيبيل الذراعين الممدودتين نحوه دون طائل، وخرج من الغرفة مع ليديا.

ـ أتعرفين مدى خطورة وضع أمك؟

ـ أجل... لقد أخبرني الأطباء بذلك...

نظر إليها مباشرة:

ـ إنها في حالة أخطر بكثير مما تتصورين.

شحب لون ليديا، وتطلعت خارجاً لتكبح إجهاشة وهي تعض شفتيها. ثم دمدمت:

ـ ألا يوجد طبيب هنا؟

ـ هنا لا يوجد، ولا في دائرة محيطها عشرة فراسخ؛ ولكننا سنبحث عن طبيب.

في ذلك المساء وصل البريد بينما كانا وحدهما في المطبخ، وفتح نيبيل إحدى الرسائل.

وسألته ليديا بقلق وهي ترفع عينيها نحوه:

ـ أهناك أخبار؟

فرد نيبيل وهو يواصل القراءة:

ـ أجل.

وعادت ليديا لتسأل بعد لحظة بلهفة أكبر:

ـ أهي أخبار من الطبيب؟

فرد بصوت قاس ودون أن يرفع عينيه:

ـ لا، إنها من زوجتي.

في الساعة العاشرة ليلاً جاءت ليديا راكضة إلى غرفة نيبيل.

ـ أوكتافيو! إن أمي تموت!...

هرعا إلى حجرة المريضة. وكان شحوب جثة شديد قد غطى وجهها. وكانت شفتاها متورمتين وزرقاوين إلى أقصى الحدود، ومن بينهما كانت تخرج أشباه كلمات حلقية وملء الفم:

ـ بلا... بلا... بلا...

ورأى نيبيل على الفور زجاجة المورفين الفارغة تقريباً على الكوميدينو.

ـ طبعاً ستموت! من أعطاها هذا؟

ـ لست أدري يا أوكتافيو! لقد سمعت ضجة قبل قليل... لاشك أنها بحثت عنها بنفسها في غرفتك حين لم تكن موجوداً... أماه، يا

أماه! ـ قالت ذلك وهي تهوي باكية على الذراع البائس المتهدل نحو الأرض.

جس نيبيل نبضها؛ كانت ضربات القلب تخفت حتى التلاشي، والحرارة تنخفض بسرعة. وبعد لحظة توقفت الشفتان عن ترديد الـ «بلا... بلا»، وظهرت على الجلد بقع كبيرة بنفسجية اللون.

ماتت في الساعة الواحدة ليلاً. وعند العصر، بعد دفنها، كان نيبيل ينتظر أن تنتهي ليديا من ارتداء ملابسها بينما كان العمال ينقلون حقائبها إلى العربة.

ـ خذي هذا! قال لها ذلك عندما أصبحت بجانبه، مقدماً إليها شيكاً بعشرة آلاف بيزو.

ارتعشت ليديا بعنف، وصوبت عينيها المحمرتين إلى نيبيل. ولكنه بقي محتفظاً بنظراته عالياً. وكرر القول متفاجئاً:

ـ خذي!

تناولت ليديا الشيك وانحنت لتحمل حقيبتها الصغيرة. عندئذ انحنى نيبيل فوقها وقال لها:

ـ سامحيني. ولا تحكمي علي بأسوأ مما أنا في الواقع.

وفي المحطة انتظرا لبعض الوقت دون أن يتكلما، كانا يقفان إلى جانب سلم العربة ريثما يتحرك القطار. وعندما رن الجرس،

مدت إليه ليديا يدها، فأمسك بها نيبيل لحظة وهو صامت. ثم، ودون أن يفلتها، أحاط خصر ليديا وقبلها بشدة من فمها.

انطلق القطار. وبقي نيبيل جامداً في مكانه يلاحق بنظره النافذة التي تبتعد لتضيع في المدى.

ولكن ليديا لم تطل منها.

السوليتير

كان قاسم رجلاً عليلاً، يمتهن الصياغة، ولكنه لم يكن يملك دكاناً. لقد كان يعمل لحساب بيوتات المجوهرات الكبرى، لكونه متخصصاً في أعمال الترصيع بالأحجار الكريمة. وقليلة هي الأيدي التي تصل إلى مهارة يديه في أعمال الترصيع الدقيقة. ولو أنه كان ميالاً إلى التجارة وماهراً فيها لحقق ثراء كبيراً، ولكنه بالرغم من بلوغه الخامسة والثلاثين من عمره، فإنه مازال يعيش في حجرته البائسة التي حوّل جزءاً منها يقع تحت النافذة إلى مشغل له.

كان جسم قاسم ضامراً، ووجهه ذاوياً تظلله لحية سوداء خفيفة، وكانت له زوجة باهرة الجمال وشديدة الولع والتهالك على كل شيء. وكانت الآمال قد راودت الصبية، وهي من منشأ شوارعي، بأن تتمكن من الزواج من رجل أكبر شأناً. انتظرت إلى أن بلغت العشرين من عمرها، وكانت تستثير بجمال جسدها الرجال، وجاراتها من النساء أيضاً. ولكنها خشيت في النهاية من البقاء دون زواج، فوافقت على الزواج من قاسم على مضض.

لم تعد تراودها أحلام حياة البذخ والرفاهية التي حلمت بها.

فقد كان زوجها، وهو الحرفي الماهر، يفتقر تماماً إلى الصفات التي تتيح له الثراء. فكانت تستند إلى مرفقيها بينما زوجها الصائغ يعمل منكباً على ملاقطه، وتسدد إليه نظرات بليدة متثاقلة، ثم لا تلبث أن تنتزع نفسها بعنف من ذلك الشرود، وتلاحق ببصرها عبر زجاج النافذة عابر سبيل وجيهاً كان يمكن له أن يكون زوجاً لها.

ومع ذلك، فإن كل ما كان قاسم يكسبه كان يقدمه إليها. وكان يعمل في أيام الآحاد أيضاً ليتمكن من إرضائها بمبلغ إضافي. وعندما كانت ماريا ترغب في الحصول على حِلّية - ويا لعنادها حين ترغب في شيء! - كان يواصل العمل ليلاً. ثم تأتيه بعد ذلك نوبات السعال ووخزات الألم في جانب الصدر؛ ولكن ماريا تكون قد حصلت على جوهرتها الصغيرة البراقة. وشيئاً فشيئاً جعلها التعامل اليومي مع الأحجار الكريمة تحب مهنة الصائغ الفنان، فكانت تتابع بلهفة أعمال الترصيع الدقيقة التي يقوم بها زوجها. ولكن، ما إن ينتهي العمل في الحلية - يجب تسليمها عندئذ، فهي ليست لها - حتى تصاب بخيبة أمل مفجعة بزوجها. كانت تجرب الحلية، وتقف بها طويلاً أمام المرآة. ثم تتركها أخيراً وتنصرف إلى حجرتها. فينهض قاسم من مكانه حين يسمع النحيب، ويجدها في السرير، غير راغبة في الاستماع إلى كلمة واحدة منه.

فيقول لها بأسى في النهاية:

- إنني أفعل مع ذلك كل ما أستطيعه من أجلك.

فيرفع كلامه ذاك من وتيرة النحيب، ويعود الصائغ للجلوس في مقعده.

لقد تكررت هذه الأمور مراراً حتى أن قاسم لم يعد ينهض لمواساتها... مواساتها! مِمَ؟ ولكن ذلك لم يمنع قاسماً من إطالة سهره ليحصل لها على أجر عمل إضافي أكبر.

كان رجلاً صموتاً متردداً وغير حازم. وصارت نظرات زوجته تحدق بإلحاح أشد وطأة إليه في هدوئه الأصم، وتدمدم:

ـ أنت رجل، أنت!

ولم يكن قاسم المنكب على فصوص أحجاره الكريمة يتوقف عن تحريك أصابعه. لكنه كان يقول لها بعد برهة:

ـ أنت غير سعيدة معي يا ماريا.

ـ سعيدة! ولديك الجرأة لقول هذا! من هي التي تستطيع أن تكون سعيدة معك؟... هذا غير ممكن حتى لآخر امرأة في الدنيا!...

ثم تختم كلامها بضحكة عصبية، وتقول وهي تنصرف عنه:

ـ يا لك من شيطان بائس!

فيعمل قاسم في تلك الليلة حتى الثالثة فجراً، وتحصل زوجته بعد ذلك على مجوهرات صغيرة أخرى تمعن النظر إليها وهي تزم شفتيها وتقول:

ـ أجل... إنها ليست بالتاج الذي يخلب الألباب!... متى صقلتها؟

فينظر إليها بعذوبة شاحبة:

ـ عملت بها منذ يوم الثلاثاء... في الليل، وأنت نائمة...

ـ آه، كان بإمكانك أن تنام!... ولكن، يا لضخامة هذه القطع الماسية!

لقد كان ولعها ينصب على الأحجار الكريمة الضخمة التي يرصع بها قاسم الحلي. فكانت تراقب عمله بجوع تريد إشباعه دفعة واحدة. وما إن ينتهي من ترصيع واحدة من الحلي حتى تأخذها وتهرع بها إلى المرآة. ثم يلي ذلك نوبة من البكاء:

ـ جميعهم، جميع الرجال، حتى الأخير منهم يقدمون على تضحية لملاطفة زوجاتهم! أما أنت... أنت... لا يوجد لدي حتى ثوب بائس أرتديه!

حين تتجاوز المرأة حداً معيناً من احترامها للرجل، يمكن لها أن تقول لزوجها أشياء لا تُصدق.

وامرأة قاسم تجاوزت ذلك الحد بطيش لا يقل عن ولعها بالجواهر. وفي مساء أحد الأيام، لاحظ قاسم بعد أن خبأ مجوهراته أن هناك مشبكاً ناقصاً ـ خمسة آلاف ثمن قطعتي الماس اللتين فيه ـ بحث ثانية في أدراج طاولته.

ـ ألم ترِ المشبك يا ماريا؟ لقد تركته هنا.

ـ بلى، لقد رأيته.

ـ أين هو؟

ـ هنا!

كانت زوجته تقف منتصبة، بعينين متوقدتين وفم ساخر، بينما المشبك معلق على ثوبها.

فقال لها قاسم باندفاع:

ـ إنه مناسب لك. فلنخبئه الآن.

ضحكت ماريا:

ـ آووه، لا! إنه لي.

ـ أنت تمزحين!...

ـ نعم، أمزح! أمزح، نعم! كم يؤلمك مجرد التفكير في أنه قد يكون لي!... غداً أعيده إليك. أما اليوم فسأذهب به إلى المسرح.

شحب لون قاسم:

ـ إنك تُسيئين التصرف... قد يرونك. سيفقدون الثقة بي.

ـ آووه! وأغلقت الباب وراءها بنزق غاضب.

حين عادت من المسرح، وضعت الحلية على الطاولة الصغيرة. فنهض قاسم وخبأها في طاولة الشغل وأقفل عليها بالمفتاح. وعندما رجع كانت زوجته جالسة في السرير.

ـ هذا يعني أنك تخاف أن أسرقها! تعني أنني لصة!

ـ لا تنظري إلى الأمر على هذا النحو... لقد تصرفتِ بتهور وحسب.

ـ آه، وأنت يأتمنونك عليها! أنت، أنت! وعندما تطلب منك زوجتك شيئاً من الملاطفة، وتريد أن... تسمني لصة! يا لك من لئيم!

ثم نامت أخيراً، ولكن قاسم لم ينم.

فيما بعد، سلموا قاسم قطعة سوليتير ليصنع منها حلية، وكانت تلك هي أثمن جوهرة لمستها يداه.

ـ انظري يا ماريا أي حجر كريم هذا. لم أر في حياتي مثيلاً له.

لم تقل زوجته شيئاً، لكن قاسم أحس بها وهي تتنهد بعمق فوق السوليتير. فواصل قائلاً:

ـ جوهرة مدهشة... تساوي تسعة أو عشرة آلاف بيزو.

فتمتمت زوجته حينئذ:

ـ خاتم!

ـ لا، إنها حلية رجالية... مشبك ربطة عنق بدبوس.

وعلى إيقاع العمل في الحلية، كان قاسم يتلقى على كاهله الشغيل ضغينة زوجته ورغباتها المحبطة. كانت تقطع عمله عشر مرات كل يوم لتحمل المجوهرة وتذهب للوقوف بها أمام المرآة، ثم تستبدل ثيابها لتجربها بأثواب مختلفة.

وتجرأ قاسم على القول لها يوماً:

ـ يمكنك أن تفعلي ذلك فيما بعد... إنه عمل مستعجل.

وانتظر رداً منها ولكن دون جدوى؛ فقد فتحت زوجته باب الشرفة.

ـ ماريا، قد يراك أحد!

ـ خذ! هاهي ذي جوهرتك!

وتدحرجت الحلية التي انتزعتها عن ثوبها بنزق على الأرض.

خف قاسم إلى التقاطها وتفحصها، ثم رفع بصره عن الأرض باتجاه زوجته.

ـ حسن، لماذا تنظر إلي هكذا؟ هل حدث شيء لجوهرتك؟

ـ لا. أجابها قاسم، وعاد إلى عمله في الحال على الرغم من أن يديه كانتا ترتعشان بصورة تثير الأسى.

ولكنه أضطر إلى أن ينهض أخيراً كي يرى زوجته وهي في ذروة نوبة من نوباتها العصبية. كان شعرها قد انفلت وخرجت عيناها من محجريهما. وهتفت به صارخة من السرير:

ـ أعطني الجوهرة! أعطني إياها! سنهرب من هنا! إنها لي! هاتها!

تلعثم قاسم وحاول أن يقول شيئاً:

ـ ماريا...

فاندفعت زوجته بجنون:

ـ آه! أنت هو اللص، أنت الدنيء! لقد سلبت حياتي، لص، لص! وكنت تظن أنني لن أنتقم... أيها القواد! أجل!

ثم رفعت يديها إلى عنقها وهي تكاد تختنق. ولكنها حين همّ قاسم بالخروج، قفزت من السرير وألقت بنفسها على الأرض وتمكنت من الإمساك بإحدى فردتي حذائه:

ـ ليس مهماً! أعطني الجوهرة! لا أريد شيئاً سواها! إنها لي يا قاسم البائس!

ساعدها قاسم على النهوض وقد امتقع وجهه:

ـ إنك مريضة يا ماريا. سنتحدث فيما بعد... نامي الآن.

ـ جوهرتي!

ـ حسن، سنرى إذا كان ذلك ممكناً... نامي.

ـ اعطني إياها.

وعادت النوبة العصبية من جديد.

رجع قاسم إلى العمل في جوهرته. ولأن لديه يقيناً رياضياً لإمكانيات يديه، فقد قدر أنه سينتهي من العمل بها خلال بضع ساعات.

نهضت ماريا لتأكل، وأحاطها قاسم بالعناية التي يحيطها بها

دائماً. وبعد الانتهاء من تناول العشاء، تطلعت زوجته إلى وجهه وقالت:

ـ لا أكاد أصدق، غير معقول.

فرد قاسم مبتسماً:

ـ آووه! ليس هناك ما يستحق الذكر.

فأصرت:

ـ أقسم لك أنه غير معقول!

ابتسم قاسم ثانية، وربت على يدها بمداعبة بليدة، ثم نهض ليكمل عمله. ولاحقته زوجته بنظرها وهي تسند وجهها بين راحتيها، ثم دمدمت:

ـ لا تقل لي ثانية إن... ولكنها أحست بتقزز عميق من ذلك الشيء اللزج والرخو والخامل الذي هو زوجها، فنهضت ومضت إلى السرير.

لم تنم جيداً. واستيقظت في وقت متأخر، ورأت النور في المشغل، لقد كان زوجها يواصل العمل. وبعد ساعة من ذلك سمع قاسم صوتاً يصرخ:

ـ أعطني إياها!

ورد متسرعاً:

ـ أجل، إنها لك، سأنتهي منها بعد قليل يا ماريا. ثم نهض

إليها، لكن زوجته كانت تنام ثانية بعد أن أطلقت تلك الصرخة الكابوسية.

في الساعة الثانية عشرة ليلاً أنهى قاسم عمله؛ كانت فصوص الجوهرة تتلألأ بثبات وقوة. مضى إلى المخدع بخطوات حذره، وأضاء مصباح الطاولة الصغيرة. كانت ماريا تنام مولية ظهرها وسط بياض قميص النوم والشراشف.

ذهب إلى المشغل ثم رجع ثانية. تأمل النهد المكشوف قليلاً لهنيهة ثم ابتسم ابتسامة باهتة وهو يزيح قميص النوم المفتوح.

لم تشعر زوجته به.

كان الضوء خافتاً. واكتسى وجه قاسم فجأة بصلابة الصخر، فتدلت الجوهرة على النهد العاري، ثم غرس الدبوس بيد ثابتة وبصورة عمودية في قلب زوجته مثلما يغرس مسماراً.

حدث انفتاح مفاجئ في العينين، تلاه مباشرة تراخ بطيء في الجفون، ثم تقوست الأصابع ولم يحدث أي شيء آخر.

حلية السوليتير التي ارتفعت مع ارتعاش عقدة الجرح، تذبذبت برهة وقد فقدت توازنها الأول. انتظر قاسم لحظة أخرى إلى أن توقفت حركة حلية السوليتير واستقرت ثابتة تماماً، فانسحب خارجاً وأغلق الباب وراءه دون أن يُحدث ضجة.

الدجاجة المذبوحة

طوال النهار كان أبناء الزوجين مازيني وفيراز الأربعة البُلهاء يجلسون على مقعد في الفناء، ألسنتهم تتدلى من بين شفاههم، وعيونهم متبلدة، ورؤوسهم تتحرك دون توقف وأفواههم مفتوحة على اتساعها.

كان الفناء ترابياً، مغلقاً من الجهة الغربية بسور من الآجر. وكان المقعد موازياً للسور، يبعد عنه خمسة أمتار، وعليه كانوا يجلسون وعيونهم مثبتة على آجر السور. وما إن تختفي الشمس عند غروبها وراء الرابية حتى يشيع بين البلهاء الأربعة جو احتفالي. فالشمس المبهرة تجذب انتباههم في أول الأمر، فتنتعش عيونهم شيئاً فشيئاً، ثم ينفجرون أخيراً في ضحك صاخب، محتقنين دائماً بالقهقهة الشرهة نفسها، ومتطلعين إلى الشمس بسعادة بهيمية، وكأنها طبق طعام سيأكلونه.

وفي أحيان أخرى، وبينما هم يجلسون على المقعد، كانوا يصدرون أزيزاً متواصلاً لساعات، مقلدين صوت الترام الكهربائي. فقد كان الضجيج القوي يخرجهم كذلك من جمودهم، فيركضون

عندئذ حول الفناء وهم يعضون ألسنتهم ويجأرون. ولكنهم كانوا يبقون ساكنين وخامدين في معظم الأحيان، وغارقين في سبات بلاهة قاتم. وكانوا يقضون النهار جالسين على مقعدهم وأرجلهم مدلاة وساكنة، مبللين سراويلهم بلعاب لزج.

كان عمر أكبرهم اثنتي عشرة سنة، وأصغرهم ثماني سنوات. وكان كل منهم في مظهرهم القذر والبائس يشير إلى الغياب المطلق لأدنى اهتمام أمومي.

لكن هؤلاء البلهاء الأربعة كانوا، رغم ذلك، فتنة أبويهم في يوم من الأيام. فبعد ثلاثة شهور من زواج مازيني وبيرتا، كرس الزوجان كل حبهما الحميم كرجل وامرأة، وامرأة ورجل، من أجل هدف شديد الحيوية: إنجاب ابن. وأي سعادة لعاشقين أكبر من هذا التجسيد المُشرّف لحبهما المجرد من دناءة وأنانية الحب الذي بلا هدف، أو مما هو أسوأ من ذلك، أي افتقاد الأمل بالتجدد ومواصلة النسل.

هذا ما أحس به مازيني وبيرتا حين تزوجا. وعندما جاء الوليد، بعد أربعة عشر شهراً من الزفاف، ظنا أن سعادتهما قد اكتملت. ونما الطفل جميلاً ومشرقاً إلى أن بلغ عمره سنة ونصف السنة. وفي إحدى ليالي الشهر العشرين من عمره، انتابته اختلاجات فظيعة، وفي صباح اليوم التالي لم يعد بإمكانه التعرف على أبويه. فحصه الطبيب باهتمام مهني، وكان واضحاً أنه يبحث عن سبب الداء في أمراض الأبوين الوراثية.

بعد بضعة أيام استعادت أعضاء الطفل المشلول حركتها، أما الذكاء والروح والفطرة السليمة فقد مضت كلها إلى غير رجعة. لقد تحول إلى متخلف تماماً، وصار أبله مترهلاً وميت العقل إلى الأبد فوق ركبتي أمه.

كانت الأم تنتحب بحرقة فوق حطام ابنها البكر المرعب:

- ابني، ابني الحبيب!

أما الأب المنهار، فقد رافق الطبيب إلى الخارج.

- يمكنني أن أبوح لك بالحقيقة. أظن أنه حالة ميؤوس منها. قد يتحسن، ويكون بالإمكان تربيته ضمن الحدود التي تتيحها بلاهته، ولكن ليس أكثر من ذلك.

فقال مازيني بخضوع:

- أجل!... أجل!... ولكن قل لي: هل تظن الأمر وراثياً، وأنه...؟

- فيما يتعلق بالوراثة الأبوية، أطلعتك على رأيي عندما رأيت ابنك. أما بالنسبة للأم، فلديها رئة لا تعمل جيداً. لست أرى شيئاً آخر، ولكن هناك زفير فيه شيء من الحشرجة، حاول أن تُجري لها فحصوصاً دقيقة.

وبروح حطمها وخز الضمير، ضاعف مازيني من حبه لابنه، ذلك الأبله الصغير الذي كان يدفع ثمن شطط جده. وكان عليه أن

يواسي زوجته كذلك، وأن يقدم دعماً متواصلاً لبيرتا التي جُرحت في أعمق أعماقها بسبب ذلك الإخفاق في أمومتها الفتية.

ومثلما هو طبيعي في مثل هذه الحالة، وضع الزوجان كل حبهما في الأمل بإنجاب طفل آخر. وقد ولد هذا الطفل فعلاً، فجاءت صحته الجيدة وضحكته الصافية لتؤجج من جديد آمالهما الخامدة. ولكن الاختلاجات التي أصابت الابن البكر تكررت مع الثاني، وأصيب بالبله أيضاً.

سقط الأبوان هذه المرة في هوة عميقة من اليأس. أيكون دمهما وحبهما ملعونين! وخصوصاً حبهما! سنوات عمره الثماني والعشرون، وسنوات عمرها الاثنتان والعشرون وكل ما لديهما من العواطف الرقيقة ليست كافية لخلق بذرة حياة طبيعية. ما عادا يطلبان أقصى ما يمكن من الجمال والذكاء، مثلما كانا يرغبان قبل إنجاب الابن البكر، إنهما يريدان ابناً وحسب، ابناً مثل كل الناس الآخرين!

ومن النكبة الجديدة انبثقت ومضات جديدة من الحب المعذب، وشوق مجنون لافتداء قداسة رقتهما مرة وإلى الأبد. فأنجبا توأماً، وتكرر ما حدث مع ابنَيهما السابقين خطوة خطوة.

ولكن، على الرغم من كل المرارة، بقي لدى مازيني وبيرتا إحساس كبير بالشفقة على أبنائهم الأربعة. وكان لابد لهما من أن ينتزعا من أعمق أعماق البهيمية، ليس أرواح أبنائهم، وإنما

غريزتهم المعطلة نفسها. فقد كان الأبناء عاجزين عن الابتلاع، وعن المشي، وحتى عن مجرد الجلوس. وأخيراً، تعلموا المشي، ولكنهم كانوا يصطدمون بكل شيء، لأنهم لا يدركون وجود العوائق. وعندما كان الأبوان يحممانهم، كانوا يجأرون حتى تحتقن وجوههم بالدم. وكانوا لا ينتعشون إلا عند الأكل أو رؤية ألوان لامعة أو سماع دوي صاخب. عندئذ كانوا يضحكون ببهيمية. ولكنهم كانوا يتمتعون مع ذلك بقدرة على التقليد، ولم يكن بالإمكان الوصول بهم إلى ما هو أكثر من ذلك.

بعد ولادة التوأم بدا وكأن الوالدين قد اقتنعا بوجوب وضع حد لهذا النسل المرعب. ولكن ثلاث سنوات مضت، وأحس مازيني وبيرتا برغبة حارقة في إنجاب ابن آخر، موقنين من أن الزمن الطويل الذي انقضى قد أخمد قدرهما الفاجع.

لم يحققا آمالهما. وفي دوامة أشواقهما المتأججة التي يستفزها إحساسهما بعدم نفعهما، سيطر عليهما السخط والعصبية. كان كل منهما حتى ذلك الوقت يحمل على كاهله الجزء الذي يخصه من بؤس أبنائهما، ولكن اليأس من الخلاص من المسوخ الأربعة التي أنجباها دفع كلاً منهما إلى إلقاء اللوم على الآخر، وهذه الحالة هي إرث خاص بالقلوب التافهة.

بدأا باستبدال الضمائر في أحاديثهما: **أبناؤك**. ولأن الدسيسة في هذه الكلمة كانت أكبر من الشتيمة، فقد أصبح الجو أكثر توتراً.

في إحدى الليالي قال مازيني لزوجته بعد أن دخل وغسل يديه:

ـ أظن أنه يمكنك الحفاظ على نظافة الأولاد.

فواصلت بيرتا القراءة وكأنها لم تسمعه.

ولكنها ما لبثت أن ردت عليه بعد لحظة:

ـ إنها المرة الأولى التي أراك فيها مهتماً بحالة أبنائك.

فالتفت مازيني إليها وقال بابتسامة مغتصبة:

ـ أظنك تعنين أبناءنا...

فرفعت عينيها وقالت:

ـ حسن، أبناؤنا. هل هذا هو ما يروقك؟

عندئذ قال مازيني بوضوح:

ـ لا أظنك تريدين القول إنني المسؤول، أليس كذلك؟

فابتسمت بيرتا ابتسامة شديدة الشحوب:

ـ آه، لا! ولا أعتقد أنني المسؤولة أيضاً... ثم دمدمت بخفوت: ـ هذا ما كان ينقصني!...

ـ هذا ما كان ينقصك؟

ـ إذا كان ثمة مسؤول، فلست أنا بالتأكيد. عليك أن تفهم هذا جيداً! وهذا هو ما أريد قوله لك.

نظر زوجها إليها ملياً وبه رغبة جامحة في شتمها. ثم قال أخيراً وهو يمسح يديه:

ـ دعينا من هذا الكلام!

ـ كما تشاء. ولكن إذا كنت تقصد...

ـ بيرتا!

ـ كما تشاء!

كان هذا هو الصدام الأول، ثم تلته صدامات أخرى. ولكنهما في مصالحات روحيهما الحتمية كانا يتفقان في تلهفهما إلى ابن آخر.

وهكذا ولدت لهما ابنة. وعاشا سنتين والكرب يسحق روحيهما بانتظار وقوع نكبة أخرى.

ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث. ووضع الأبوان كل رضاهما في خدمة ابنتهما، فكانت الطفلة تنعم بأقصى حدود الدلال وسوء التربية.

وإذا كانت بيرتا قد واظبت في الفترة الأخيرة على العناية بأبنائها، إلا أنها تجاهلتهم تماماً بعد ولادة بيرتيتا الصغيرة. وكان مجرد تذكرهم يرعبها، وكأنها تتذكر أمراً فظيعاً أُجبرت على اقترافه. وكان الشيء نفسه يحدث مع مازيني، وإن كان بدرجة أقل. ولكن ذلك لم يكن كافياً لبث الطمأنينة في قلبيهما. فأدنى اعتلال يصيب الطفلة يجعلهما، لخوفهما من فقدانها، يقذفان خارجاً كل

ما في نفسيهما من الضغائن بسبب نسلهما العفن. لقد راكما المرارة لزمن طويل حتى امتلأ الكأس، وصار السم يفيض منه لدى أدنى ملامسة. وكانا قد فقدا الاحترام المتبادل منذ أول استياء سُمّي، وإذا كان ثمة شيء يدفع الإنسان إلى الانغماس في لذة القسوة، فإنما هو مواصلة إذلاله الكامل لشخص آخر بعد أن يكون قد بدأ بذلك.

في البدء كانا يكبحان جماح سخطهما بسبب قصورهما المشترك في التوصل إلى النجاح، أما الآن، وبعد أن جاء النجاح، فقد كان كل منهما ينسبه إلى نفسه، ويزداد إحساسه بوصمة عار المسوخ الأربعة الذين أجبره الآخر على إنجابهم.

بهذه المشاعر لم يعد بالإمكان تقديم أدنى قدر من العاطفة إلى الأبناء الأربعة الكبار. فكانت الخادمة تبدل لهم ملابسهم وتطعمهم وتدفعهم إلى النوم بجفاء واضح. ولم يكن هناك من يهتم بنظافتهم. وكانوا يقضون اليوم كله تقريباً وهم يجلسون قبالة السور بعيداً عن أي نوع من المداعبة الحانية.

منذ ثلاث ساعات لم ينطق مازيني ولا بيرتا بكلمة واحدة، والسبب هو كالعادة، وقع خطوات مازيني القوية.

ـ رباه! ألا يمكنك المشي بخطوات أبطأ؟ كم من المرات...

ـ حسن، لقد نسيت. يكفي! لم أفعل ذلك متعمداً.

فابتسمت هي بازدراء:

ـ لا، لست أصدقك كثيراً!

ـ وأنا لم أصدقك في أي يوم... يا للمسلولة!

ـ ماذا! ماذا قلت؟

ـ لا شيء!

ـ بلى، لقد سمعتك! انظر، لا أعرف ما الذي قلته، ولكنني أقسم لك إنني أفضل أي شيء على أن يكون لي أب مثل الذي كان لك!

شحب وجه مازيني ودمدم وهو يضغط أسنانه:

ـ أخيراً! أخيراً نطقت أيتها الأفعى ما كنت تريدين قوله!

ـ أجل، أفعى، أجل! ولكن كان لي أبوان سليمان! هل تسمع؟ سليمان! أبي لم يمت بالهذيان الارتعاشي الكحولي! لقد كان بإمكاني إنجاب أبناء أصحاء مثل جميع الناس! هؤلاء أولادك.. الأربعة من نسلك!

انفجر مازيني دفعة واحدة:

ـ أيتها الأفعى المسلولة! هذا هو ما قلته وما أود قوله لك! اسألي الطبيب، اسأليه من هو المسبب الأكبر في إصابة أبنائك بالسحايا، أهو أبي أم رئتك المتعفنة أيتها الأفعى!

واصلا تلك المشاجرات التي كانت تزداد عنفاً في كل مرة، إلى أن تخرسهما حشرجة صادرة عن الصغيرة بيرتيتا. وفي الواحدة بعد منتصف الليل يكون ألم معدة الطفلة قد تلاشى، ومثلما يحدث

لجميع الأزواج الشبان الذين تبادلوا الحب بنشوة ولو لمرة واحدة، كانت تأتي المصالحة، وتكون أكثر تدفقاً كلما كانا أكثر عدوانية.

أشرق الصباح رائعاً. وبينما كانت بيرتا تنهض من الفراش، بصقت دماً. لابد أن السبب هو انفعالها في تلك الليلة السيئة. احتضنها مازيني طويلاً، وبكت هي على صدره بيأس، ولكن دون أن يتجرأ أي منهما على النطق بكلمة واحدة.

في الساعة العاشرة قررا أن يخرجا من البيت بعد تناول الغداء، ولأن الوقت كان قد أدركهما، فقد أمرا الخادمة بأن تذبح دجاجة للغداء.

كان اليوم المشرق قد انتزع أربعة البلهاء من مقعدهم. وبينما كانت الخادمة تذبح الدجاجة وتصفي دمها ببطء (وهي طريقة جيدة للحفاظ على اللحم طازجاً تعلمتها بيرتا من أمها)، أحست بأن هناك شيئاً كالتنفس وراءها. وحين استدارت، رأت أربعة البلهاء يقفون وأكتافهم متلاصقة وهم يراقبون عملها بذهول. أحمر... أحمر...

ـ سيدتي! الأطفال هنا في المطبخ.

جاءت بيرتا مسرعة. لم تكن تحب مطلقاً دخولهم إلى المطبخ. ألا يمكنها حتى في هذه الساعة المترعة بالصفح التام والنسيان والسعادة المستعادة أن تتجنب رؤية هذا المشهد الفظيع! ومثلما هو

طبيعي، فقد كان اشمئزازها من المسوخ يزداد كلما اشتد زخم حبها لزوجها وابنتها.

فليخرجوا يا ماريا! اطرديهم من عندك.. أقول لك اطرديهم!

اتجه البهيميون الأربعة نحو مقعدهم مضروبين ومدفوعين بفظاظة.

بعد الغداء خرجوا جميعهم. فقد ذهبت الخادمة إلى بوينس ايرس وخرج الزوجان مع الطفلة للتنزه بين البيوت الريفية. وعندما مالت الشمس للمغيب رجع الزوجان إلى البيت، ولكن بيرتا رغبت في المرور لحظة على بيت جارتها المريضة لتسلم عليها، غير أن ابنتها الصغيرة انطلقت راكضة إلى البيت.

في أثناء ذلك، لم يكن البلهاء الأربعة قد تحركوا من مقعدهم طوال النهار. كانت الشمس قد تجاوزت السور وبدأت تختفي، وكانوا يواصلون التحديق بآجر السور باهتمام لم يظهر عليهم من قبل.

وفجأة ظهر شيء ما بين أعينهم والسور. إنها أختهم المتعبة من خمس ساعات برفقة الأبوين تريد التأمل بمفردها. وقفت عند أسفل السور وهي تنظر ساهمة إلى أعلاه. لاشك في أنها تريد تسلقه. وأخيراً قررت الاستعانة بكرسي منزوع الأرضية، ولكنها لم تفلح مع ذلك في الوصول إلى أعلى السور. فاستخدمت عندئذ صفيحة

كيروسين فارغة، وقد دفعتها غريزتها إلى وضع الصفيحة بشكل عمودي، وهكذا نجحت في مسعاها.

رأى المتخلفون الأربعة، بنظرات غير مبالية، كيف تمكنت أختهم من التحكم بتوازنها بصبر، وكيف كانت تقف على أصابع قدميها وتسند ذقنها فوق حافة السور العليا بين يديها المشدودتين. رأوها وهي تتطلع في كل الاتجاهات وتبحث عن نقطة إسناد لقدمها كي ترتفع أكثر.

لكن الحماسة ما لبثت أن دبت في نظرات الأخوة البلهاء، ولمع في عيونهم جميعاً البريق نفسه. لم يرفعوا نظراتهم عن أختهم بينما كان إحساس من الشراهة البهيمية يتنامى فيهم، ويبدل كل خط في وجوههم. وراحوا يتقدمون ببطء من السور. أختهم الصغيرة التي وجدت أخيراً مسنداً لقدمها كانت على وشك أن تمتطي السور لتقفز إلى الجهة الأخرى، ولكنها أحست بأن يداً قد أمسكت إحدى ساقيها. وسيطر عليها الذعر حين رأت تحتها العيون الثماني مصوبة إلى عينيها.

ـ اتركوني! اتركوني! صرخت بذلك وهي تشد ساقها، ولكنها جُذبت بقوة إلى أسفل، فصرخت:

ـ ماما! آه يا ماما! ماما! بابا!

بكت بكاء جنينياً، وحاولت التشبث بحافة السور، ولكنها انتُزعت بقوة وسقطت على الأرض.

ـ ماما! آي، ما...! ولم تستطع أن تصرخ أكثر. فقد ضغط أحدهم على عنقها وأخذ يبعد خصلات الشعر وكأنها ريش، وسحبها الآخرون من ساق واحدة إلى المطبخ، حيث جرت في ذلك الصباح تصفية دم الدجاجة وانتُزعت منها الحياة قطرة قطرة.

مازيني الذي كان مع زوجته في البيت المجاور ظن أنه سمع صوت ابنته، فقال لبيرتا:

ـ أظنها تناديك.

أصاخا السمع قلقين، ولكنهما لم يسمعا شيئاً. ومع ذلك، فقد ودّعا الجيران بعد لحظة وخرجا، وبينما ذهبت بيرتا لتضع قبعتها في البيت، تقدم مازيني في الفناء منادياً:

ـ بيرتيتا!

لم يرد عليه أحد. فرفع صوته متخوفاً:

ـ بيرتيتا!

كان الصمت ثقيلاً جداً على قلبه الهلع، بل إن الهواجس الرهيبة جمدت ظهره.

ـ ابنتي، ابنتي! وركض يائساً إلى أقصى الفناء. ولكنه حين مر أمام المطبخ رأى بحراً من الدماء يسيل على الأرض. فدفع الباب الموارب بعنف وأطلق صرخة رعب.

أما بيرتا التي انطلقت تركض بدورها حين سمعت نداءات الأب المغمومة، فقد سمعت الصرخة وردت عليها بصرخة أخرى.

ولكنها حين هرعت نحو المطبخ، اعترضها مازيني بوجه شاحب مثل الموت وأوقفها:

ـ لا تدخلي! لا تدخلي!

وتمكنت بيرتا من رؤية الأرض المغطاة بالدم. واستطاعت فقط أن ترفع ذراعها إلى رأسها قبل أن تتهالك على زوجها مطلقة زفرة مبحوحة .

وسادة الريش

كان شهر عسلها قشعريرة طويلة. إنها شقراء، ملائكية، خجولة. وقد جمد طبع زوجها الصارم أحلامها الطفولية كعروس. كانت تحبه كثيراً، إنما كانت تخالط حبها ارتعاشة خفيفة أحياناً حين تنظر خلسة إلى «خوردان» الصامت منذ نحو ساعة وهما عائدان ليلاً في الشارع. وكان هو من جهته يكن لها محبة عميقة، ولكن دون أن يُظهر ذلك.

وخلال ثلاثة شهور ـ تزوجا في نيسان ـ عاشا سعادة خاصة.

لاشك في أنها كانت ترغب في قدر أقل من الصرامة في سماء الحب المتيبسة تلك، وفي مزيد من الحنان المنطلق والصريح؛ ولكن مظهر زوجها الصارم كان يكبح رغبتها على الدوام.

ولم يكن تأثير البيت الذي يعيشان فيه قليلاً في الارتعاشات التي تنتابها. فبياض الفناء الصامت ـ أفاريز وأعمدة وتماثيل رخامية ـ كان يثير في نفسها انطباعاً خريفياً لقصر مسحور. وفي الداخل، كان بريق المرمر والكلس الجليدي، دون أي خدش في الجدران العالية، يؤكد ذلك الإحساس بالبرودة الفظة. وعند الانتقال من

غرفة إلى أخرى، تجد الخطى صدى لها في كل أرجاء البيت، وكأن هجراناً طويلاً قد شحذ حساسية وقعها.

في عش الحب الغريب هذا أمضت أليسيا الخريف كله. ومع ذلك، فقد انتهت إلى إلقاء حجاب على أحلامها القديمة، وصارت تبقى نائمة في البيت العدائي الذي تعيش فيه، لا تريد التفكير في أي شيء قبل أن يصل زوجها.

لم يكن هزالها مستغرباً. وقد أصيبت بنوبة أنفلونزا خفيفة امتدت لأيام وأيام، ولم تشف منها أليسيا على الإطلاق. وأخيراً، استطاعت في مساء أحد الأيام الخروج إلى الحديقة مستندة إلى ذراع زوجها. كانت تنقل نظرها دون اهتمام من جهة إلى أخرى. وفجأة، مر خوردان براحة يده على رأسها ببطء وحنان عميق، فانفجرت أليسيا فوراً بالبكاء، وألقت بذراعيها حول عنقه. بكت طويلاً كل رعبها الدفين. وكان بكاؤها يشتد عند كل مداعبة رقيقة. ثم بدأ النحيب يتباطأ بعد ذلك، ولكنها بقيت ملتصقة بصدره طويلاً، دون أن تتحرك أو تتفوه بكلمة.

كان ذلك هو اليوم الأخير الذي نهضت فيه أليسيا من الفراش. فقد استيقظت في اليوم التالي منهوكة وشاحبة. فحصها طبيب خوردان باهتمام بالغ، وأمر بأن تلزم الفراش وتتوفر لها الراحة التامة. وقال لخوردان بصوت خافت وهما عند الباب الخارجي:

ـ لست أدري. لديها ضعف شديد لا أجد له تفسيراً. وهي لا

تتقيأ ولا تعاني شيئاً من هذا القبيل... إذا ما بقيت على هذه الحال حتى الغد فاتصل بي فوراً.

وفي اليوم التالي كانت أليسيا في حالة أسوأ. أُجريت لها فحوص طبية، وتبين أنها مصابة بفقر دم حاد يتفاقم باستمرار دون أن يكون له أي تفسير. لم يعد يغمى عليها، ولكنها كانت تمضي نحو الموت بصورة مرئية. وكانت غرفة النوم تبقى مضاءة طوال اليوم ويخيم عليها صمت مطبق. ساعات وساعات كانت تمر دون سماع أي صوت. كانت أليسيا تنام. وكان خوردان يقضي الوقت في الصالة التي أضيئت كل أنوارها أيضاً، يتنقل دون توقف من جانب إلى آخر بعناد لا يلين. وكانت السجادة تكتم صوت خطواته. وبين الحين والآخر كان يدخل إلى حجرة النوم ويواصل مشيته المترنحة على طول السرير متوقفاً للحظة عند كل طرف من أطرافه لينظر إلى زوجته.

سرعان ما بدأت أليسيا تهذي، وكانت هذيانات مضطربة وطافية في الفضاء أول الأمر، ثم ما لبثت أن هبطت بعد ذلك إلى مستوى الأرض. ولمْ تكن المرأة الشابة تفعل شيئاً بعينيها المفتوحتين على اتساعهما سوى النظر إلى السجادة عند نهاية السرير. وفي إحدى الليالي تجمد نظرها فجأة، وفتحت فمها لتصرخ وقد تلألأ أنفها وشفتيها بحبات العرق:

ـ خوردان! خوردان! صرخت متيبسة من الرعبْ دون أن تتوقف عن النظر إلى السجادة.

أسرع خوردان إلى غرفة النوم، وما إن رأته أليسيا يدخل حتى أطلقت صرخة رعب.

ـ هذا أنا يا أليسيا، إنني أنا.

نظرت أليسيا إليه بضياع، ونظرت إلى السجادة، ثم عادت تنظر إليه، وبعد تأمل طويل وذهول، استعادت الهدوء، فابتسمت وأمسكت يد زوجها بين يديها وداعبتها لنصف ساعة وهي ترتعش.

بين هذياناتها الأكثر إلحاحاً كانت ترى قرداً شبه إنساني يستند بأصابعه إلى الوسادة، وعيناه تحدقان بها.

عاد الأطباء لرؤيتها ولكن دون جدوى. فقد كانت أمامهم حياةً تذوي.. تفقد دماءها يوماً بعد يوم، وساعة بعد ساعة، دون أن يجدوا تفسيراً لذلك على الإطلاق. وفي الفحص الأخير كانت أليسيا ترقد في غيبوبة، بينما الأطباء يجسون نبضها ويتناقلون معصمها الخامد فيما بينهم. تملوها طويلاً بصمت، ثم مضوا إلى صالة الطعام. وهناك هز طبيب الأسرة كتفيه بيأس وقال:

ـ إنها مسألة جدية... ولا يمكننا أن نفعل إلا القليل.

فزمجر خوردان وهو يضرب الطاولة بقبضته:

ـ هذا ما كان ينقصني.

كانت أليسيا تنطفئ في غيبوبة الأنيميا التي تتفاقم في وقت متأخر من الليل، ولكنها تتوقف دائماً في الصباح. فخلال النهار لم

يكن مرضها يتقدم، ولكنها تستيقظ كل صباح ببشرة أشد زرقة، وشبه مغمى عليها. كان يبدو وكأن الحياة تغادرها ليلاً في دفقات جديدة من الدم. وكانت تشعر حين تستيقظ كل صباح وكأنها خامدة على السرير تحت ثقل مليون كيلوغرام. ومنذ اليوم الثالث لم يعد هذا الخمود يفارقها أبداً. وكانت لا تكاد تستطيع تحريك رأسها. لم تكن تريدهم أن يلمسوا السرير، ولا حتى أن يسووا الوسادة.

لقد أصبح رعبها الغسقي يتخذ الآن شكل مسوخ يتجررون حتى السرير ويتسلقون شراشفه بصعوبة.

بعد ذلك فقدت الوعي تماماً. وفي اليومين الأخيرين صارت تهذي بصوت خافت دون توقف. وكانت الأضواء تسطع دوماً بضوء مأتمي في غرفة النوم والصالة. ولم يكن يُسمع في صمت البيت الاحتضاري سوى الهذيان الرتيب الصادر من السرير، والوقع الأصم لخطوات خوردان الأبدية.

وأخيراً توفيت أليسيا. وعندما دخلت الخادمة وحدها لترتب السرير، نظرت إلى الوسادة برهة باستغراب. ثم نادت خوردان بصوت خافت:

ـ سيدي! توجد لطخات على الوسادة تبدو وكأنها بقع دم.

دنا خوردان مسرعاً وانحنى فوق الوسادة. وبالفعل، كانت على كيس الوسادة، عند جانبي الفجوة التي خلّفها رأس أليسيا، بقع صغيرة قاتمة.

تمتمت الخادمة بعد لحظة من التأمل:

ـ تبدو وكأنها أثر لسعات.

فقال لها خوردان:

ـ ارفعيها إلى الضوء.

رفعت الخادمة الوسادة، ولكنها أفلتتها على الفور وبقيت تحدق بها مرتجفة وشاحبة. وأحس خوردان بأن شعره ينتصب دون أن يدرك السبب.

دمدم بصوت أجش:

ـ ماذا حدث؟

تلعثمت الخادمة وهي ما تزال ترتعش:

ـ إنها ثقيلة جداً.

حمل وردان الوسادة؛ وكانت ثقيلة بصورة غير معقولة. خرجا بها. وفوق طاولة صالة الطعام، شق خوردان غطاء الوسادة وكيسها بضربة سكين. فطار الريش، وأطلقت الخادمة صرخة رعب بفم مفتوح إلى أقصاه، وهي ترفع يديها المتشنجتين. ففي قاع الوسادة، بين الريش، كانت تتحرك ببطء قوائم مغطاة بزغب، وكان هناك حيوان مسخ... كرةٌ حية ولزجة. وكان ذلك المسخ منتفخاً إلى حد لا يكاد يظهر معه فمه.

فليلة إثر ليلة، ومنذ أن سقطت أليسيا طريحة الفراش، كان

ذلك الكائن يغرس فمه ـ أو إبرته بكلمة أدق ـ في صدغها ويمتص دمها. كان موضع اللدغة غير مرئي تقريباً. ولابد أن ترتيب المخدة اليومي كان يحول في البدء دون تطوره، ولكن حين لم تعد الشابة قادرة على الحركة، أصبح الامتصاص سريعاً جداً. وفي خمسة أيام وخمس ليال أفرغ أليسيا من الدم تماماً.

هذه الطفيليات الطيارة الدقيقة جداً في الظروف العادية، تكتسب في بعض الأحيان وفي ظروف معينة أبعاداً ضخمة. ويبدو أن الدم البشري خصوصاً يساعدها في ذلك، وليس من المستبعد العثور عليها في وسائد الريش.

مع التيار

داس الرجل شيئاً ضارباً إلى البياض، وأحس باللدغة في قدمه على الفور. قفز إلى الأمام. وعندما التفت وهو يطلق لعنة تجديف، رأى حية ياراكاكوسو تلتف على نفسها متأهبة لهجوم آخر.

ألقى الرجل نظرة سريعة على قدمه، حيث كانت قطرتا دم تكبران، وسحب منجل المتشيتي من حزامه. رأت الحية التهديد، فأغرقت رأسها أكثر فأكثر في مركز لولب جسمها؛ لكن المتشيتي هوى على ظهرها فاصلاً الفقرات بعضها عن بعض.

انحنى الرجل على مكان اللدغة، ومسح قطرتي الدم الصغيرتين، وتأمل الإصابة برهة. كان هناك ألم حاد يولد من الغرزتين البنفسجيتين آخذاً بالامتداد إلى القدم كلها. ربط الرجل رسغ قدمه على عجل بمنديل وواصل سيره نحو مزرعته.

كان الألم في قدمه يزداد مع إحساس بورم متوتر. وفجأة شعر الرجل بوخزتين أو ثلاث وخزات كأنها الوميض، تشع من الجرح الصغير وتصل حتى منتصف ربلة الساق. كان يحرك ساقه بمشقة،

ويشعر بجفاف معدني في حلقه، تلاه ظمأ حارق جعله يطلق لعنة أخرى.

وصل أخيراً إلى المزرعه، وألقى بنفسه على دولاب معصرة قصب السكر، واستند إليه بذراعيه. لقد اختفت النقطتان البنفسجيتان الآن وسط الورم الفظيع الذي أصاب القدم كلها. بدا الجلد رقيقاً جداً يكاد يتمزق من شدة التوتر.

أراد أن ينادي امرأته، فانكسر الصوت في شهقة مبحوحة خرجت من حنجرته الجافة. كان الظمأ ينهشه بشراسة. ولكنه تمكن مع ذلك من إصدار صوت عال:

ـ دوروتيا! أعطني خمراً!

أسرعت زوجته تحمل كأساً مملوءة، رشفها الرجل في ثلاث جرعات سريعة. ولكنه لم يجد لها طعماً.

فزمجر ثانية:

ـ طلبت منك خمراً وليس ماء! أعطني خمراً.

فاعترضت المرأة مذعورة:

ـ ولكنه خمر يا باولينو!

ـ لا، أعطيتني ماء! أقول لك أريد خمراً!

هرولت المرأة ثانية، وعادت وهي تحمل دمجانة الخمر. فكرع الرجل كأسين آخرين، ولكنه لم يشعر بأي رطوبة في حلقه. فدمدم

عندئذ وهو ينظر إلى قدمه التي أصبح لونها أزرق مائلاً إلى السواد، وفيها بريق الغنغرينا:

ـ همم، الحال يسوء...

لقد كان اللحم يطفح حول عقدة المنديل وكأنه قطعة سجق هائلة.

توالت ومضات الألم في إرسال إشعاعاتها التي صارت تصل الآن إلى الورك. وجفاف الحلق الفظيع الذي جعل الأنفاس تبدو أكثر سخونة كان يزداد أكثر فأكثر. وعندما حاول النهوض أجبرته نوبة قيء صاعقة على البقاء نصف دقيقة مسنداً جبهته إلى العجلة الخشبية.

لكن الرجل لم يكن يريد الموت، فنزل حتى ضفة النهر وركب زورقه. جلس في مؤخرة الزورق وراح يدفعه بعصا حتى منتصف نهر بارانا. فتيار النهر الذي يتدفق بسرعة ستة أميال بالقرب من أغواسو، سيحمله حتى تاكورو. بوكو في أقل من خمس ساعات.

وتمكن الرجل فعلاً، بهمة مذهلة، من الوصول إلى منتصف النهر، لكن يديه المخدرتين أفلتتا العصا في الزورق، وبعد نوبة قيء أخرى ـ وكان القيء دماً هذه المرة ـ وجّه نظره إلى الشمس التي كانت تغرب وراء الأفق.

كانت الساق كلها، وحتى منتصف الفخذ، قد أصبحت كتلة مشوهة وقاسية جداً جعلت البنطال يتفزر. فك الرجل الحزام وشق

البنطال بسكينه: كان أسفل البطن متورماً وفيه بقع زرقاء تؤلمه ألماً فظيعاً. فكر الرجل بأنه لن يستطيع الوصول وحده أبداً إلى تاكورو. بوكو، ورأى أن يطلب مساعدة صديقه ألفيس، على الرغم من أنهما متخاصمان منذ زمن طويل.

كان تيار النهر يتجه الآن نحو الضفة البرازيلية، وقد تمكن الرجل من الرسو بزورقه بسهولة. جرجر نفسه على الضفة نحو الأعلى، ولكنه استنفد قواه بعد عشرين متراً، وبقي منبطحاً على الأرض.

صرخ بكل ما تبقى لديه من قوة:

- ألفيس!

وأصاخ السمع دون جدوى. ثم هتف ثانية وهو يرفع رأسه عن الأرض:

- أيها الصديق ألفيس! لا ترفض تقديم هذا المعروف لي!

ولم تُسمع أي همسة في صمت الغابة. كانت لدى الرجل القدرة للعودة مرة أخرى إلى الزورق، وقد حمله التيار من جديد وساقه باندفاع شديد.

يجري نهر بارانا في ذلك المكان في اختناق صخري هائل يرتفع جانباه إلى علو مئة متر ويحتضن النهر وكأنه نعش. وعلى الضفاف ذات الكتل البازلتية السوداء، تتسامق الغابة السوداء أيضاً. ومن الأمام وعلى الجانبين ومن الخلف لا وجود لشيء سوى ذلك

الجدار الصخري الكئيب. وفي قعر الانهدام يتدفق النهر مدوماً في حوامات مياه موحلة. المشهد كله عدواني يخيم عليه صمت الموت. لكن جماله الكئيب وسكونه الموحش يكتسب عند المساء مهابة فريدة.

كانت الشمس قد غابت عندما انتابت الرجل المنبطح في قاع الزورق اختلاجة عنيفة. وفجأة، رفع رأسه بتثاقل وهو مذهول: لقد أحس بتحسن. ساقه تؤلمه ألماً لا يكاد يشعر به، وقد خفت حدة الظمأ كثيراً، وصدره الذي تحرر من الثقل صار ينفتح في شهيق بطيء.

لقد بدأ السم بالتلاشي، لاشك في ذلك. إن حالته جيدة تقريباً، وبالرغم من افتقاده القدرة على تحريك يده، إلا أنه أدرك أن سقوط الندى سيشفيه تماماً. وقدر أنه سيكون في تاكورو. بوكو قبل أقل من ثلاث ساعات.

أخذ التحسن يزداد، وجاءت معه إغفاءة ممتلئة بالذكريات. لم يعد يشعر بأي شيء في ساقه أو في بطنه. أما يزال صديقه غاونا حياً في تاكورو. بوكو؟ ربما سيلتقي هناك أيضاً برب عمله السابق مستر دوغالد وبرئيس العمال.

أيصل إلى هناك عما قريب؟ السماء التي كانت غروباً، انفتحت الآن كشاشة ذهبية، والنهر أيضاً صار بلون الذهب. ومن الضفة المحاذية لجهة الباراغواي المظلمة، كان الجبل يرسل إلى النهر

برودته الغسقية في نفحات نفاذة من زهر البرتقال والعسل البري. ومرّ زوج من الببغاوات بصمت على ارتفاع شاهق باتجاه الباراغواي.

هناك في الأسفل، على صفحة النهر الذهبية، كان الزورق ينساق بسرعة مع التيار، ويدور للحظات حول نفسه عند كل دوامة مائية. وكان الرجل الراقد فيه يشعر بتحسن مطرد، ويفكر في أثناء ذلك بالوقت الذي مضى بالضبط دون أن يرى رب عمله السابق دوغالد. أهي ثلاث سنوات؟ لا، ربما أقل من ذلك. سنتان وتسعة أشهر؟ ربما! بل ثمانية أشهر ونصف؟ أجل، هذه هي المدة بالضبط.

وفجأة، أحس بأنه متجمد حتى صدره.

ماذا عساه يكون هذا الإحساس؟.. والتنفس...

لقد تعرف على لورينسو كوبيا الذي كان يشتري الأخشاب من مستر دوغالد في بويرتو اسبيرنثا، وكان ذلك في يوم جمعة حزينة... يوم جمعة؟ أجل، أو خميس...

بسط الرجل أصابع يده ببطء.

- يوم خميس...

وتوقف عن التنفس.

الرجل الميت

انتهى الرجل ومنجله من تنظيف المسكبة الخامسة في بيارة الموز. بقيت أمامه مسكبتان، وبما إن الأعشاب البرية والخبازي ليست كثيرة فيهما، فإن المهمة المتبقية لديه كانت يسيرة جداً. ألقى الرجل في النهاية نظرة راضية على الشجيرات التي انتهى من تعشيب ما حولها، واجتاز سياج الأسلاك ليستلقي على النجيل.

ولكن، عندما أنزل السلك الشائك ومر بجسده من فوقه، انزلقت قدمه اليسرى على قشرة منتزعة من نصبة السياج، في الوقت نفسه الذي أفلت فيه المنجل من يده. وفيما هو يسقط، خيل للرجل في تصور ناءٍ جداً أنه لا يرى المنجل المطروح على الأرض.

كان قد تمدد على النجيل، مستنداً إلى جانبه الأيمن، مثلما كان يرغب. وانتهى فمه الذي فتحه على اتساعه إلى الانطباق كذلك. إنه في الوضع الذي كان يرغب فيه، ركبتاه مثنيتان ويده اليسرى فوق صدره. إلا أنه وراء ذراعه وتحت حزامه مباشرة،

كانت تبرز من قميصه قبضة المنجل ونصف شفرته، أما الجزء المتبقي فلم يكن ظاهراً.

حاول الرجل تحريك رأسه ولكن دون جدوى. ألقى نظرة مواربة إلى قبضة المنجل التي كانت ما تزال متضمخة بعرق يده. وقدر في ذهنه مقدار ولوج المنجل ومساره في بطنه وأيقن، بعد عملية حسابية باردة وحتمية، أنه وصل إلى نهاية وجوده.

الموت. إن أحدنا ليفكر كثيراً خلال مسيرة الحياة بأنه في يوم ما، بعد سنوات، بعد شهور، بعد أسابيع أو بعد أيام تحضيرية، سيصل بدوره إلى عتبة الموت. إنه القانون المحتم، المقبول والمنتظر، مهما اعتدنا السماح لأنفسنا بحمل الرضا في الخيال عن هذه اللحظة، العليا بين جميع اللحظات، التي سنلفظ فيها نفسنا الأخير.

ولكن، في هذه اللحظة الأخيرة، في هذا النفس الأخير، ماذا عن الأحلام، والقلق، والآمال، والآلام التي كانت موضع اعتداد في حياتنا! ما الذي ما زال يخبئه لنا هذا الوجود المليء بالقوة قبل زواله من المسرح الإنساني! هذا هو العزاء، والمتعة، والسبب في شرودنا الجنائزي: أبعيد جداً هو الموت، وغير متوقع هذا الذي بقي علينا أن نحياه!

وبعد؟... لم تمض ثانيتان: الشمس مازالت في موقعها نفسه؛ الظلال لم تتقدم ميليمتراً واحداً. فجأة، انتهت بالنسبة للرجل الممدد شرودات المدى الطويل: إنه يموت.

ميت. يمكن اعتباره ميتاً في وضعه المريح هذا.

لكن الرجل يفتح عينيه وينظر. كم من الوقت مضى؟ أية كارثة اجتاحت العالم؟ أي خلل في الطبيعة أثاره هذا الحدث الرهيب؟

سيموت. إنها باردة ومشؤومة وحتمية عبارة سيموت هذه.

الرجل يقاوم ـ لم يكن هذا الرعب متوقعاً بأي شكل من الأشكال! ويفكر: إنه كابوس.. هكذا هو! ما الذي تغير؟ لا شيء. وينظر: أليست بيارة الموز هذه هي بيارته؟ ألا يأتي كل يوم لتنظيفها؟ ومن ذا الذي يعرفها مثله؟ إنه يرى بيارة الموز جيداً، بشجيراتها المتفرقة، ذات الأوراق العريضة المكشوفة للشمس. إنها هناك، قريبة جداً، تفرقها الريح بعضها عن بعض. لكنها لا تتحرك الآن... إنه سكون الظهيرة: لابد أن الساعة هي الثانية عشرة إلا قليلاً.

ومن خلال شجيرات الموز يرى الرجل وهو فوق الأرض الصلبة سقف منزله الأحمر هناك في الأعلى. ويلمح الجبل وشجرة القرفة، دون أن يستطيع الرؤية إلى أبعد من ذلك. لكنه يعرف جيداً أن طريق الميناء الجديد يمضي وراء ظهره، وهناك في الأسفل، باتجاه رأسه، يربض نهر بارانا النائم في قاع الوادي مثل بحيرة. كل شيء، كل شيء مثلما كان دائماً تماماً، الشمس النارية، والهواء الرنان والمتوحد، وشجيرات الموز المنفردة، والسياج ذو الدعائم الغليظة والمرتفعة التي لابد من استبدالها قريباً.

ميت! وهل هذا ممكن؟ أليس هذا هو يوم آخر من الأيام الكثيرة التي خرج بها من بيته فجراً وهو يحمل المنجل في يده؟ أليس حصانه، مالاكارا، هو الذي يقف هناك، على بعد أربعة أمتار منه، يشم الأسلاك الشائكة بوقار.

أجل! هنالك من يصفر... لكنه لا يستطيع أن يرى من هناك، لأن ظهره إلى الطريق، ثم يسمع وقع خطوات الحصان على الجسر الصغير... إنه الفتى الذي يمر من هناك كل يوم في طريقه إلى المرسى الجديد، في الساعة الحادية عشرة والنصف. يطلق الصفير دائماً. بين دعامة السور المنخورة التي تكاد تلامس حذاءه، وسياج النباتات البرية الذي يفصل بيارة الموز عن الطريق، يوجد خمسة عشر متراً أو يزيد. إنه يعرف ذلك تماماً، لأنه هو نفسه قاس المسافة عندما نصب الأسلاك الشائكة.

ما الذي يحدث الآن؟ أهذه ظهيرة أخرى من الظهيرات الكثيرة في ميسيونيس، في جبله، في مربع مواشيه، في بيارته قليلة الكثافة أم هي غير ذلك؟ لا مجال لأي شك! هاهو النجيل القصير، ومخروطات الصخور، والصمت، والشمس الرصاصية...

لا شيء، لا شيء قد تغير. هو وحده المختلف. منذ حوالى دقيقتين لم تعد لشخصه، لشخصيته الحية، أية علاقة بمربع المواشي الذي كونه هو نفسه بالمعزقة طوال خمسة شهور، ولا ببيارة الموز التي هي من عمل يديه وحده. لقد انتُزع من كل هذا

بفظاظة، بصورة طبيعية، بفعل قشرة ملساء ومنجل في البطن. وها هو منذ دقيقتين: يموت.

الرجل المنهوك المدد فوق النجيل على جانبه الأيمن، يقاوم لتقبل ظاهرة بمثل هذه الخطورة، أمام المشهد الطبيعي الذي يراه. إنه يعرف تماماً كم هي الساعة.. إنها الحادية عشرة والنصف... فالفتى الذي يمر كل يوم قد مر لتوه فوق الجسر.

ولكن، ألا يمكن أن يكون قد زل...! كان مقبض منجله (عليه استبداله في أسرع وقت بآخر جديد، لأنه أصبح تالفاً) مضغوطاً تماماً ما بين يده اليسرى والسلك الشائك. بعد عشر سنوات في الغابة، أصبح يعرف كيفية استخدام المنجل الجبلي على أحسن وجه. إنه متعب من عمله الذي أنجزه هذا الصباح وحسب، وهو يستريح هنيهة كعادته كل يوم.

وما الدليل؟... لكن هذا النجيل الذي أخذ يدخل الآن في شق فمه كان قد زرعه هو نفسه، بقوالب من التراب المتماسك يبعد أحدها عن الآخر مسافة متر واحد! وهاهي بيارة الموز! وهذا هو جواده مالاكارا، يلهث باحتراس أمام أشواك سلك السياج! إنه يراه تماماً، ويعرف أنه لا يجرؤ على الالتفاف من حيث يضيق السلك، لأنه هو ملقى عند السياج. إنه يميزه جيداً، ويرى خيوط العرق القاتمة التي تنزلق من العنق والردف. الشمس تهوي كالرصاص، والسكون شديد جداً، حتى أن أطراف أوراق الموز لا تتحرك. إنه يرى كل يوم، مثلما يرى اليوم، هذه الأشياء ذاتها.

... إنه منهوك جداً، لكنه يستريح وحيداً. لابد أن عدة دقائق قد انقضت... وفي الساعة الثانية عشرة إلا ربعاً، ستنطلق زوجته وابناه من هناك في الأعلى، حيث البيت ذو السطح الأحمر، ويتجهون نحو بيارة الموز، ويدعونه إلى الغداء. إنه يسمع دائماً، وقبل سماع أصوات الآخرين، صوت ابنه الأصغر الذي يريد الإفلات من يد أمه وهو يصيح: بيابا! بيابا!

أليس هذا هو صوته؟... طبعاً، اسمع! إنها ساعة مجيئهم. ويسمع فعلاً صوت الابن.

يا للكابوس!... لكنه يوم من الأيام الكثيرة، تافه مثلها جميعها، بالطبع!... ضوء مفرط الشدة، ظلال صفراوية، حر صامت كحر الفرن حول اللحم يجعل مالاكارا يتعرق وهو يقف ثابتاً أمام بيارة الموز المحرمة.

... متعب جداً، كثيراً، ولا شيء سوى ذلك. كم من المرات، في ظهيرة كهذه الظهيرة، عبر وهو في طريق عودته إلى البيت هذا المرج الذي كان خراباً لدى قدومه إلى هنا، وكان قبل ذلك مجموعة تلال عذراء! وكان يعود حينئذ متعباً جداً، بخطوات بطيئة، بينما منجله يتدلى من يده اليسرى.

بإمكانه أن يمضي بذهنه بعيداً لو أراد، بإمكانه لو أراد أن يغادر جسده للحظة ويرى من فوق القناطر التي شيدها هو بنفسه، المشهد اليومي المألوف: الصخور البركانية المغطاة بالأعشاب

اليابسة، بيارة الموز ورملها الأحمر، السياج الذي يضيق عند اتصاله بالطريق. وأن يرى فيما وراء ذلك المرعى الذي هو من صنع يديه وحدهما. وأن يرى نفسه إلى جانب دعامة منخورة من دعائم السياج، مستلقياً على جانبه الأيمن وساقاه مثنيتان، تماماً كما يفعل كل يوم، وكأنه صرة صغيرة متوحدة فوق النجيل، يرقد مستريحاً، لأنه متعب جداً...

لكن الحصان المخطط بالعرق، والذي يقف ثابتاً باحتراس أمام شراسة الأسلاك الشائكة، يرى كذلك الرجل الملقى على الأرض ولا يتجرأ على اجتياز حقل الموز مثلما يرغب. وأمام الأصوات التي اقتربت منادية ـ بيابا! يصغي بأذنيه لبرهة إلى الصرة المكومة.. وبعد أن يطمئن أخيراً، يقرر المرور ما بين الدعامة والرجل المستلقي ـ الذي قد استراح.

العسل البري

لي في سالتو الشرقية ابنا عم أصبحا اليوم رجلين، ولكنهما حين كانا في الثانية عشرة، وبتأثير استغراقهما في قراءة جون فيرن، قررا هجر بيتهما والذهاب للعيش في الجبل. وكان ذلك الجبل على بعد فرسخين عن المدينة. وكانا ينويان أن يعيشا هناك حياة بدائية يعتمدان فيها على صيد الحيوانات والأسماك. صحيح أن الصبيين لم يتذكرا أن يأخذا معهما بنادق صيد وصنارات لصيد السمك؛ ولكن الغابة كانت هناك على أي حال، تبعث على النشوة بحريتها، وعلى الفتنة بأخطارها.

وللأسف الشديد، عثر عليهما في اليوم التالي من خرجوا للبحث عنهما. كانا ما يزالان مندهشين إلى حد كبير، وبهما قدر غير قليل من الإعياء، وكان الأمر الذي أذهل اخوتهما الصغار ـ الذين بدؤوا أيضاً بقراءة جون فيرن ـ أنهما مازالا يمشيان على قدمين اثنتين ويتذكران الكلام.

لقد كانت مغامرة هذين الروبنسونين مع ذلك أكثر عادية مما لو أن مسرحها كان غابة أخرى لا يرتادها الناس بكثرة في أيام الآحاد.

فمحاولات الهروب تقود الناس هنا في ميسيونيس إلى حدود غير متوقعة، وإلى تلك الحدود انجرف غابرييل بينينكاسا في زورقه الزاهي.

فبعد أن أنهى بينينكاسا دراسة المحاسبة العامة، أحس برغبة جامحة في التعرف على حياة الأدغال. ولم يكن مزاجه هو الذي دفعه إلى ذلك، فقد كان بينينكاسا معروفاً قبل ذلك بأنه فتى مسالم، بدين وذو وجه وردي، مما يدلل على صحته الممتازة. وقد كان في النتيجة على درجة من التعقل تجعله يفضل كأساً من الشاي مع الحليب وبعض قطع الحلوى على أي ثمرة برية جهنمية لا يعرف أحد كنهها، مما يمكن تناوله في الغابة. ولكن، مثلما يعتقد العازب الذي كان حكيماً على الدوام، بأن الواجب يفرض عليه عشية زواجه، أن يودع حياة الحرية بليلة قصف مع أصدقائه، أراد بينينكاسا بالطريقة نفسها أن يشرّف حياته المضبوطة بصدمتين أو ثلاث صدمات في خضم الحياة الزخمة. ولهذا السبب ركب نهر البارانا في زورقه الشهير متوجها إلى مزرعة عرابه.

وما إن خرج من كورينتيس حتى انتعل جزمته المتينة، لأن التماسيح كانت تبعث الحرارة في المشهد. ولكن المحاسب العام كان يعتني كثيراً مع ذلك بجزمته، فيتجنب خدشها أو توسيخها.

وهكذا وصل إلى مزرعة عرابه، وبعد ساعة من ذلك كان على هذا الأخير أن يكبح جماح ابن أخيه. فقد سأله متفاجئاً:

ـ إلى أين أنت ذاهب الآن؟

فرد عليه بينينكاسا الذي كان قد علق بندقية الونشستر على كتفه:

ـ إلى الجبل؛ أريد أن أتجول فيه قليلاً.

ـ يالك من تعس! لن تستطيع أن تخطو خطوة واحدة هناك. سر على الدرب إذا أردت... ومن الأفضل أن تترك هذا السلاح، وفي الغد أُرسلُ معك أحد العمال.

تخلى بينيكاسا عن جولته. ومع ذلك، فقد ذهب حتى حافة الغابة وتوقف. حاول ببلادة أن يتقدم خطوة إلى الأمام، ولكنه بقي ساكنا في مكانه. دس يديه في جيبيه ونظر بتمعن إلى ذلك التشابك العويص، وكان يصفر في أثناء ذلك ألحاناً مبتورة. وبعد أن تأمل الغابة من هذا الجانب ومن ذاك، رجع وهو خائب الأمل.

ومع ذلك، فقد سار في اليوم التالي مسافة فرسخ تقريباً على الدرب المركزية. وبالرغم من أنه رجع وبندقيته ما تزال نائمة بعمق، إلا أنه لم يأسف على تلك الجولة. فالوحوش ستبدأ بالظهور شيئاً فشيئاً دون شك.

وقد ظهرت فعلاً في الليلة التالية، وإن كان ذلك بطريقة فريدة بعض الشيء.

كان بينينكاسا ينام بعمق حين أيقظه عرابه:

ـ إيه، أيها النؤوم! انهض وإلا أكلتْكَ حياً.

جلس بينينكاسا فجأة على السرير، مبهوراً بضوء الفوانيس الهوائية الثلاثة التي كانت تتحرك من جانب إلى آخر في الغرفة. وكان عرابه واثنان من العمال يرشان الأرض.

سأل وهو يلقي بنفسه إلى الأرض:

ـ ما الذي يحدث، ما الذي يحدث؟

ـ لاشيء... انتبه لقدميك... إنها **الكوريكثيون**.

كان بينينكاسا قد سمع بذلك النوع الغريب من النمل المدعو **كوريكثيون**. إنها نمال صغيرة سوداء لامعة، تندفع بسرعة كبيرة في أسراب كأنها أنهار عريضة. وهي آكلة لحم أساساً. تلتهم في تقدمها كل ما تصادفه في طريقها: عناكب، جنادب، عقارب، ضفادع، أفاع، وكل كائن لا يمكنه مقاومتها. ليس هناك حيوان، مهما كان كبيراً أو قوياً، إلا ويهرب من أمامها. إن دخولها إلى بيت يعني القضاء الماحق على كل كائن حي فيه، إذ ليس هناك ركن أو ثقب عميق إلا ويستطيع ذلك التيار المندفع الأكول الوصول إليه. الكلاب تنبح، الجواميس تخور، ولابد من إخلاء البيت لها، وإلا فإنها قادرة خلال عشر ساعات على التهام أي حيوان حتى الوصول إلى هيكله العظمي. إنها تبقى في المكان يوماً أو يومين أو خمسة أيام، حسب غناه بالحشرات، أو اللحم أو الشحم. وبعد أن تنتهي من التهام كل شيء تنصرف.

ولكنها لا تستطيع مع ذلك الصمود أمام الكريولينا أو الأدوية

المشابهة؛ وحيث أنها متوفرة بكثرة في المزرعة، فقد بقي البيت نظيفاً من نمال **الكوريكثيون** قبل انقضاء ساعة من الزمن.

كان بينينكاسا يتأمل عن قرب وشماً بنفسجياً من أثر قرصة في قدمه.

ـ إنها تعض بقوة في الواقع! قال ذلك متفاجئاً وهو يرفع رأسه نحو عرابه.

ولكن هذا الأخير الذي لم يعد يتأثر لرؤية أثر العضة لم يجب. وكان يهنئ نفسه بالمقابل لأنه تمكن من وقف الغزو في الوقت المناسب. عاد بينينكاسا إلى نومه، بالرغم من أنه كان نوماً متقطعاً طوال الليل تقطعه الكوابيس المدارية.

وفي اليوم التالي خرج إلى الجبل، وقد حمل معه في هذه المرة منجل ماتشيتي، ذلك أنه توصل إلى إدراك أن تلك الأداة ستكون أكثر فائدة له في الجبل من البندقية. صحيح أن ضرباته بالمتشيتي لم تكن رائعة، ودقته لم تكن أفضل من ذلك بكثير، ولكنه كان قادراً على أي حال على تقطيع الأغصان التي تعترض طريقه وتسوط وجهه وتمزق جزمته: كل ذلك في وقت واحد.

سرعان ما أضجره الجبل الغسقي الصامت. فالحياة المدارية الصاخبة لم تعد تبدو له في تلك الساعة إلا مسرحاً جليدياً ساكناً؛ لم يكن هناك أي حيوان أو طائر، أو أي صوت تقريباً. التفت بينينكاسا حين شدّ انتباهه أزيز مكتوم. وعلى بعد أمتار منه، في

جذع مجوف، كانت هناك نحلات تُذهِّب محيط ثقب في الجذع. اقترب باحتراس ورأى في عمق التجويف عشر أو اثنتي عشرة كرة قاتمة، كل واحدة منها بحجم بيضة.

قال المحاسب العام بنهم حميم:

ـ هذا عسل. لابد أنها أجربة شمع مملوءة بالعسل...

ولكن، ما بينه وبين أقراص العسل كانت النحلات. وبعد لحظة راحة، فكر في النار: سيثير قدراً كبيراً من الدخان. وبينما اللص يقترب باحتراس ليجمع الأوراق الرطبة المتساقطة، حطت أربع أو خمس نحلات على يده دون أن تلسعه. أمسك بينينكاسا واحدة منها على الفور، وضغط بطنها، وتأكد من أنها بلا إبرة. وما لبث لعابها الخفيف أن تكشف عن عسل رائق وغزير. يا للحيوانات الرائعة والجيدة!

وفي لحظة واحدة انتزع المحاسب أجربة الشمع كلها، وابتعد مسافة كافية ليهرب من ملمس النحلات الدبق، وجلس على أصل شجرة مقطوعة. سبعة من الاثني عشر كيساً كانت تحتوي على حبوب طلع. أما البقية فكانت مملوءة بالعسل.. عسل قاتم ذو بريق مذهل، تذوقه بينينكاسا بشراهة. كان له طعم شيء مختلف. ما هو هذا الطعم؟ لم يستطع المحاسب أن يحدده. ربما هو طعم صمغ شجر مثمر، أو شجر الأوكالبتوس. وللسبب نفسه كان للعسل الكثيف مذاق حريف مبهم. أكثر حدة من مذاق العطر.

وعندما تأكد بينينكاسا جيداً من أن خمسة أكياس فقط ستكون نافعة له، بدأ بالتهامها. كانت فكرته بسيطة: يرفع قرص الشهد فوق فمه ويجعله يقطر فيه. ولكن كثافة العسل اضطرته إلى توسيع الثقب بعد نصف دقيقة من الانتظار وفمه مفتوح دون جدوى. عندئذ نزل العسل في خيط ثقيل آخذ بالنحول ليحط على لسان المحاسب.

هكذا أُفرغت الأكياس الخمسة، واحداً بعد الآخر، في فم بينينكاسا. ولم تعد ثمة فائدة من مواصلة رفعها فوق فمه أو عصر الأقراص الفارغة؛ فكان عليه أن يقنع بذلك.

وفي أثناء ذلك، سبب له رفع رأسه المتواصل شيئاً من الدوار. وبينما هو مثقل بالعسل، ساكن وعيناه مفتوحتان جيداً، نظر بينينكاسا مجدداً نظرة تقدير إلى الجبل الغسقي. وكانت الأشجار والأرض تتخذ أوضاعاً مائلة، وكان رأسه يرافق نوسان المشهد.

فكر المحاسب: «يا للدوار الغريب... والأسوأ أنه...»

حين نهض وحاول أن يخطو وجد نفسه مجبراً على التهاوي مرة أخرى فوق الجذع. أحس وكأن جسده من رصاص، وخصوصاً ساقيه، فقد بدتا وكأنهما متورمتان تورماً هائلاً. وكانت قدماه وكفاه منملتين.

ـ هذا غريب. هذا غريب، غريب جداً! راح بينينكاسا يردد ذلك ببلاهة دون أن يمعن التفكير مع ذلك بسبب تلك الغرابة. ثم أضاف: أشعر بالتنميل...آه، **الكوريكثيون**.

وفجأة، انقطعت أنفاسه من الرعب.

ـ لابد أن العسل هو السبب!... هذا مؤكد!... لقد تسممت!...

وعند المحاولة الثانية للنهوض، انتصب شعره من الرعب. لم يستطع حتى أن يتحرك. كان الإحساس بثقل الرصاص والتنميل يصعد الآن حتى خصره. وخلال لحظة رعبٍ من أن يموت هناك، وحيداً بصورة بائسة، وبعيداً عن أمه وأصدقائه، تعطلت لديه كل قدرة على الدفاع.

ـ سأموت!... بعد لحظة سأموت!... لم أعد قادراً على تحريك يدي!

وقد انتبه وهو في رعبه مع ذلك إلى أنه لا يشعر بأي حرارة حمى ولا بحرقة في حلقه، وأن قلبه ورئتيه تعمل بإيقاعها الطبيعي. فتبدل شكل غمه.

ـ إنني مشلول، إنه الشلل! ولن يجدني أحد...

ولكن غيبوبة قاهرة بدأت تسيطر عليه، مع أن قدراته الذهنية كانت على حالها، وكان يشعر بتسارع الدوار. أحس وهو في تلك الحال بأن الأرض المتذبذبة قد أصبحت سوداء اللون، وأنها تنوس بصورة دوارية. وصعدت إلى ذهنه مرة أخرى ذكرى **الكوريكثيون**، وركز تفكيره وهو في أقصى غمه على إمكانية أن يكون ذلك السواد الذي يغطي الأرض من حوله هو...

وكان ما يزال لديه من القوة ما يكفي لانتزاع هذا الخاطر

الأخير المرعب من ذهنه، وفجأة أطلق صرخة مدوية، عواء حقيقياً، حيث صوت الرجل يستعيد رنة صوت الطفل المرعوب: فعلى ساقيه كان يندفع نهر متسارع من النمل الأسود. وتغطي الأرض فيما حوله غلالة سوداء من **الكوريكثيون** الشره، وأحس المحاسب تحت سرواله الداخلي بنهر النمال آكلة اللحم وهي تصعد.

بعد يومين من ذلك، وجد عرابه أخيراً هيكل بينينكاسا العظمي مغطى بملابسه، ولكن دون ذرة واحدة من اللحم. وقد اتضح له ما جرى بصورة كافية حين رأى أقراص شمع العسل على الأرض ونمال **الكوريكثيون** التي مازالت تطوف هناك.

ليس من الشائع أن تكون للعسل البري مثل هذه الخصائص المخدرة أو المسببة للشلل، ولكن هناك شيء من ذلك. كما أن الأزهار ذات الخصائص التخديرية موجودة بكثرة في المنطقة المدارية، وطعم العسل نفسه يكشف في معظم الأحيان عن طبيعته ـ مثلما هو طعم صمغ الأوكالبتوس الذي خيل لبينينكاسا أنه يتذوقه.

سيجارتنا الأولى

لم تكن هناك فترة أكثر سعادة من تلك التي وفرتها لنا ـ لي ولماريا ـ خالتي بموتها.

كانت خالتي لوسيا قد رجعت من بوينس ايرس بعد أن أمضت هناك ثلاثة أشهر، وفي تلك الليلة، بينما كنا نغفو، سمعنا لوسيا تقول لأمي:

ـ يا للأمر الغريب! حواجبي متورمة.

ولابد أن أمي قد فحصت حاجبي خالتي، ذلك أنها ردت عليها بعد قليل:

ـ صحيح... ألا تشعرين بشيء؟

ـ لا... نعاس فقط.

في اليوم التالي، وفي حوالى الساعة الثانية بعد الظهر، لاحظنا اضطراباً مفاجئاً في البيت، أبواب تفتح ولا تُغلق، حوارات قصيرة صارخة، وجوه مذعورة. لوسيا مصابة بالجدري، وبنوع نازف منه انتقلت إليها عدواه في بوينس ايرس.

وقد ملأتنا، أنا وأختي، المأساة بالحماسة طبعاً. فالأطفال

يشعرون بالتعاسة عادة لأن الأمور الكبرى لا تحدث في بيوتهم. والآن، هاهي ذي خالتنا - بالصدفة خالتنا بالذات! - مصابة بالجدري! وقد كنت أنا الطفل السعيد أتحدث بفخر عن صداقتي مع شرطي، ولمسي لمهرج كان قد جلس إلى جواري وهو يقفز درجات السيرك. ولكن الحدث العظيم يجري الآن في بيتنا بالذات؛ وعندما نقلتُ الخبر إلى أول صبي توقف أمام باب البيت، كانت عيناي تلمعان بزهو طفل يعيش حداداً صارماً، ثم يقف للمرة الأولى متباهياً أمام جيرانه الصغار الحائرين والحاسدين.

في مساء ذلك اليوم بالذات خرجنا من البيت، واستقر بنا المقام في البيت الوحيد الذي أمكن لنا العثور عليه في ذلك التسرع؛ إنه بيت مزرعة قديمة في الجوار. وبقيتْ إلى جوار خالتي شقيقةٌ أخرى لأمي كانت قد أصيبت بالجدري في طفولتها.

لابد أن أمي قد مرت بساعات غم قاسية في الأيام الأولى لخوفها على ابنيها اللذين قبّلا حاملة الداء. أما نحن اللذان كنا قد تحولنا إلى روبنسونين مندفعين، فلم يكن لدينا متسع لتذكر خالتنا. فمنذ زمن طويل والمزرعة هاجعة في سكونها القاتم والرطب. أشجار برتقال مبيضة بالمرض، وأشجار دراقن مشققة، وأشجار سفرجل كأنها الصفصاف، وأشجار تين متهالكة من الهجران. وكان المكان كله بأوراقه المتساقطة التي تغوص فيها الأقدام، يعطي إحساساً بأنه الجنة.

لم نكن نحن آدم وحواء بالضبط؛ ولكننا كنا بالفعل روبنسونين

بطوليين، قادتنا إلى منفانا نكبة أسرية: موت خالتنا الذي حدث بعد أربعة أيام من بدء حملتنا الاستكشافية.

كنا نقضي النهار ونحن نتجول في المزرعة، بالرغم من أن أشجار التين، وهي شديدة الالتفاف عند أصلها، كانت تسبب لنا شيئاً من القلق. كما أن البئر كذلك كانت تستثير فضولنا الجغرافي. فقد كانت بئراً قديمة غير منتهية، توقف العمل في حفرها عند الاصطدام بطبقة صخرية على عمق أربعة عشر متراً، ولكن تلك الطبقة في القاع اختفت الآن تحت الأعشاب التي نمت على جدران البئر. ومع ذلك، فقد كان لابد لنا من استكشافها، وقد تمكنا بعد جهد جهيد من نقل حجر ضخم حتى الحافة. وحيث أن البئر كانت تختفي وراء أجمة كثيفة من القصب، فقد استطعنا تنفيذ تلك المناورة دون أن تنتبه أمنا إلى ذلك. وقد رأت ماريا التي كان إلهامها الشاعري يستبق مغامراتنا دائما، أن نؤجل إجراء تجربة إلقاء تلك الصخرة إلى ما بعد هطول مطر غزير يملأ البئر حتى منتصفها، لأن ذلك سيوفر لنا متعة فنية إلى جانب المتعة العلمية.

ولكن أكثر ما كان يجتذبنا في غزواتنا اليومية هو حقل القصب. فقد تأخرنا أسبوعين كاملين في التوصل إلى استكشاف جيد لذلك التشابك الطوفاني من العيدان الخضراء، والعيدان الجافة، والعيدان المنتصبة، والعيدان المائلة، والمتداخلة، والمكسرة، والملقاة على الأرض. وكانت الأوراق الجافة، المستندة إلى سواها في سقوطها، تشكل نسيج الحقل وتملأ الهواء بغبار وقذى عند أدنى ملامسة لها.

ولكننا استكشفنا أسرار الحقل مع ذلك، وبينما كنت أجلس مع أختي في أحد الأركان الظليلة، متلاصقين وصامتين في شبه العتمة، كنا نستمتع بقضاء ساعات من الفخر بأننا غير خائفين.

وهناك بالذات، ونحن خجلان من قلة مبادراتنا، اخترعنا التدخين في عصر أحد الأيام. لقد كانت أمي أرملة؛ وكانت تعيش معنا في البيت عادة اثنتان من شقيقات أمي، وكان هناك في تلك الأيام واحد من أخوتها أيضاً، وهو ذاك الذي جاء مع لوسيا من بوينس ايرس.

كان عمر خالنا هذا عشرين سنة، وكان نحيفاً ومغتراً بنفسه، وكان قد فرض علينا نحن الاثنين في تلك الأيام سلطة كانت أمي تشجعها وهي في تلك الحالة من الكرب وعدم المبالاة.

وسرعان ما أبديت أنا وماريا استياء عميقاً من ذلك الوصي.

لقد كان يقول لأمي وهو يشير إلينا بذقنه:

ـ أؤكد لك أنني راغب في العيش معك دائماً لاهتم بصغيريك. سيكلفانك جهداً كبيراً.

فترد عليه أمي وهي متعبة:

ـ دعهما!

ولم نكن نحن نقول شيئاً؛ ولكننا كنا نتبادل النظرات من فوق طبق الحساء.

كنا قد سرقنا من هذا الشخص الصارم علبة سجائر؛ ومع أننا

كنا نميل إلى البدء فوراً بممارسة تلك الفضيلة الرجولية، إلا أننا انتظرنا إعداد الأداة. وكانت الأداة عبارة عن غليون صنعته بنفسي من قطعة قصب جعلتها مستودعاً لحشوة التبغ، وجزء من أنبوب تعليق الستارة استخدمته كمبسم، وأحكمت الوصل بينهما بمعجون زجاج انتزعناه وهو طري. كان الغليون كاملاً: فهو كبير وخفيف ومتعدد الألوان.

وفي جحرنا وسط حقل القصب حشوت أنا وماريا الغليون بورع ديني. فرطنا فيه خمس سجائر؛ ثم جلسنا عندئذ ونحن نرفع ركبنا، وأشعلت الغليون وسحبت منه نفساً. ومع أن ماريا كانت تلتهم حركاتي بعينيها، ورأت أن عيني قد امتلأتا بالدموع؛ إلا أنها لم تلمح ولن تلمح مطلقاً ما هو أشد فظاعة من ذلك. لأنني ابتلعت رغم كل شيء اللعاب المقزز ببسالة.

ـ لذيذ؟ سألتني ماريا بلهفة وهي تمد يدها.

فأجبتها وأنا أقدم لها الآلة الرهيبة:

ـ لذيذ.

سحبت ماريا نفساً بقوة أكبر مما فعلت أنا. وقد رأيت بدوري دموعها وأنا أراقبها باهتمام، ورأيت كذلك الحركة التالية لشفتيها ولسانها وحنجرتها وهي ترفض ذلك الشيء. وقد كانت شجاعتها أكبر من شجاعتي.

ـ لذيذ. ـ قالت بعينين دامعتين. ورفعتْ الأنبوب البرونزي مرة أخرى إلى فمها.

كان لابد من إنقاذها. فالكبرياء وحدها هي التي دفعتها إلى أخذ نفس آخر من ذلك الدخان الجهنمي ذي الطعم الكريه، وهي الكبرياء نفسها التي جعلتني أطري على تلك الشعلة المقززة. فقلت وأنا أصيخ السمع:

ـ اسمعي! أظنه الوقواق الذي سمعناه قبل أيام... لابد أنه قد أقام عشه هنا...

نهضت ماريا تاركة الغليون جانباً؛ وابتعدنا عن المكان ونحن نرهف أسماعنا ونتقصى بعيوننا، متلهفين ظاهرياً لرؤية الحيوان الصغير، ولكننا كنا نتشبث في الواقع بتلك الذريعة المشرّفة التي ابتدعتها لكي نتخلص من التبغ دون أن نسيء إلى كبريائنا.

بعد شهر من ذلك رجعتُ إلى غليون القصب، ولكن من أجل هدف آخر في هذه المرة.

فبسبب بعض شقاواتنا كان الوصي قد رفع صوته علينا أكثر بكثير مما يمكننا أن نتحمله أنا وأختي. وقد شكونا ذلك لأمي. فردت علينا دون أن تستمع إلينا تقريباً:

ـ ياه، لا تهتما! إنه هكذا.

فنشجت ماريا:

ـ سيصل به الأمر إلى أن يضربنا يوماً!

ـ إذا لم تفعلوا ما يستحق ذلك فلن يضربكما. قالت أمي ذلك ثم أضافت وهي تلتفت نحوي: ـ ماذا فعلتما له؟

فقلت:

ـ لم نفعل له أي شيء يا أماه... ولكنني لن أسمح له بأن يلمسني!

في تلك اللحظة بالذات دخل خالنا.

ـ آه! هاهو تحفتك إدوارد هنا... هذا الولد سيشّيبك، وسترين!

ـ إنهما يشكوان من أنك ستضربهما.

فهتف الوصي مفكراً:

ـ أنا؟ إنني لم أفكر بذلك بعد. ولكن إذا أساء أي منهما الاحترام...

ووافقت أمي:

ـ وستحسن صنعاً عندئذ.

فرددت أنا بغضب:

ـ لا أريده أن يلمسني. فهو ليس أبي!

ـ إنه خالك.. وبعد غياب أبيك المسكين... هيا، هيا، اتركاني بسلام ـ قالت ذلك وهي تبعدنا عنها.

وعندما أصبحت أنا وماريا وحدنا في الفناء، تبادلنا النظرات وفي عيوننا نار الكبرياء. وقلت:

ـ لن أسمح لأحد بأن يضربني!

وأيدتني هي بدورها:

ـ وأنا أيضاً!

ـ إنه شخص تافه!

وجاء الإلهام لأختي فجأة، مثلما يحدث عادة، فراحت تردد بضحكة صافية ومشية انتصارية:

ـ الخال ألفونسو... شخص تافه! الخال ألفونسو... شخص تافه!

وعندما التقيت بالوصي بعد قليل، بدا لي من نظراته أنه قد سمعنا. ولكننا كنا عندئذ قد وضعنا خطة السيجارة **الرافسة**، وهو نعت يدين بمجده العظيم إلى البغلة مادو.

والسيجارة الرافسة تتألف أساساً من مفرقعة محاطة بورقة سيجارة، وضعناها بين رزمة السجائر التي يحتفظ بها خالي دائماً في الكوميدينو ليدخن منها قبل القيلولة.

وقد قمنا بقص أحد الطرفين حتى لا تسبب السيجارة ضرراً كبيراً للمدخن. فدفقة من الشرر المتطاير كانت كافية، وكان النجاح في ذلك يعتمد على عدم انتباه خالنا وهو نعس إلى قساوة السيجارة.

إن الأحداث تتسارع أحياناً بطريقة لا يعود معها لدى أحدنا متسع من الوقت أو من الأنفاس لروايتها. وكل ما أعرفه هو أن

خالي خرج من غرفته مندفعاً في وقت القيلولة في أحد الأيام، ووجد أمي في غرفة الطعام.

ـ آه، أنت هنا! أتعرفين ما الذي فعلاه؟ أقسم لك إنني سأجعلهما يتذكرانني إلى الأبد هذه المرة!

ـ ألفونسو!

ـ ماذا؟ لم يعد ينقصني إلا أنتِ أيضاً!... إذا كنتِ لا تحسنين تربية ابنيك، فسأفعل ذلك أنا بنفسي!

حين سمعتُ صوت الخال الغاضب، وكنت ألعب ببراءة مع أختي عند فتحة البئر، تحركتُ بسرعة ودخلت من باب غرفة الطعام، ووقفت وراء أمي. فرآني الخال عندئذ وهجم علي. فصرخت:

ـ أنا لم أفعل أي شيء!

فزمجر خالي وهو يركض ورائي حول المنضدة:

ـ انتظر!

ـ اتركه يا ألفونسو!

ـ سأتركه لكِ فيما بعد!

ـ لن أسمح أن يضربني أحد!

ـ كفى يا ألفونسو! إنك تبدو مثل طفل!

وكان هذا هو آخر ما يمكن قوله للوصي. فقد أقسم يميناً،

وتسارعت ساقاه في مطاردتي حتى أوشك على الإمساك بي. ولكنني اندفعت في تلك اللحظة خارجاً من الباب المفتوح، وانطلقت نحو المزرعة وخالي يجري في أثري.

خلال خمس ثوان اجتزنا مثل نيزك أشجار الدراقن والبرتقال والأجاص، وفي تلك اللحظة بالذات وردت إلى ذهني بوضوح رهيب فكرة البئر وصخرته.

فصرخت مرة أخرى:

ـ لا أريد أن يضربني أحد!

ـ انتظر!

ووصلنا لحظتئذ إلى حقل القصب. وصرخت بصوت عال لكي تسمعني أمي:

ـ سألقي بنفسي إلى البئر!

ـ أنا الذي سألقي بك هناك!

تواريت فجأة عن عينيه وراء القصب؛ وفي أثناء جريي المتواصل دفعت الصخرة الاستكشافية التي كانت تنتظر هطول المطر، ثم قفزت جانباً واختبأت بين الأوراق اليابسة.

أطل خالي على الفور، في الوقت الذي لم يعد يراني فيه، وسمع دوي ارتطام جسم ثقيل في قعر البئر.

توقف الوصي وقد شحب لونه تماماً؛ جال بعينيه الواسعتين في

كل الأنحاء، ثم اقترب من البئر. حاول النظر بداخلها ولكن أعشاب البئر منعته من ذلك. حينئذ بدا عليه أنه يتأمل مفكراً، وبعد أن ألقى نظرة متفحصة إلى البئر وما حولها، بدأ بالبحث عني.

ولسوء الحظ في هذه الحالة، فإن الخال الفونسو كان قد توقف بدوره منذ زمن قصير عن الاختباء من والديه، فكان ما يزال يحتفظ بكل الاستراتيجيات المتتالية طازجة في ذهنه، وقد فعل كل ما يمكنه للعثور علي.

واكتشف على الفور مخبئي، فالتفتَ نحوه بحاسة شم باهرة؛ ولكن كثافة أوراق الشجر اليابسة التي كانت تخفيني جيداً، وتلك الارتطامة القوية المتسلطة على عقله، جعلتا خالي يتوقف عن البحث.

لقد كان مقتنعاً بأنني أرقد مهشماً في قاع البئر، مقدماً بذلك بداية ما يمكن تسميته انتقامي التالي لموتي. كانت المسألة واضحة جداً: بأي وجه سينقل خالي إلى أمي خبر إقدامي على الانتحار لكي لا أمكنه من ضربي؟

مرت عشر دقائق.

ـ ألفونسو! ـ رن فجأة صوت أمي عند الباب.

فرد عليها خالي بعد ارتعاشة لا بأس بها.

ـ ميرثيدس؟

ولا شك في أن أمي قد هجست بشيء، لأن صوتها رن من جديد بذعر وهي تتقدم قائلة:

ـ وإدواردو؟ أين هو؟

فرد عليها ضاحكاً:

ـ إنه هنا، معي! لقد تصالحنا.

ولأن أمي لم تستطع من بعيد أن ترى شحوبه ولا وجهه المضحك وهو يحاول رسم ابتسامة، فقد انقضى كل شيء على خير.

وقالت أمي بإلحاح:

ـ أنت لم تضربه، أليس كذلك؟

ـ لا، كل ذلك كان مزاحاً!

دخلت أمي إلى البيت من جديد. مزاح! لقد أصبح الأمر بالنسبة لي مزاحاً من الخال.

خالتي الكبرى سيليا التي استيقظت من قيلولتها للتو، مرت من الفناء، فاستدعاها ألفونسو بحركة صامتة من يده. وبعد لحظات أطلقت سيليا تأوهة مكتومة وهي ترفع يديها إلى رأسها.

ـ ولكن كيف! يا للفظاعة! مسكينة، يا للمسكينة ميرثيدس! يالها من ضربة قاصمة!

كان لابد من عمل شيء قبل أن تعلم ميرثيدس بالأمر. أيمكن

إخراجي وبي رمق من الحياة؟... لقد كان عمق البئر أربعة عشر متراً محفورة في الصخر. ربما أكون على قيد الحياة مع ذلك، من يدري... ولكن ذلك يتطلب حبالاً ورجالاً؛ وفي أثناء ذلك... ميرثيدس...

ـ مسكينة، يا للمسكينة ميرثيدس! هذا ما كانت تردده خالتي.

ومن المناسب أن أقول إنه لم تكن هناك دمعة واحدة علي، أنا البطل الصغير، الشهيد في وقاره الجسدي. فأمي هي التي كانت تحصد حماسة ذلك الألم، ولم يكن هناك من يعبأ بالاحتمال الضعيف في أن أكون ما أزال على قيد الحياة هناك في الأسفل. وقد سبب ذلك جرحاً أكبر لغروري كميت وحي في الوقت نفسه، وزاد من تعطشي إلى الانتقام.

بعد نصف ساعة من ذلك عادت أمي للسؤال عني، فردت عليها الخالة سيليا بدبلوماسية بائسة جداً جعلت أمي توقن على الفور بأن كارثة قد وقعت.

ـ إدواردو، ابني! صرختْ بذلك وهي تتفلت من بين يدي أختها التي كانت تحاول إمساكها ومنعها من التوجه نحو البستان.

ـ ميرثيدس! أقسم لك أنه لم يحدث أي شيء! لقد خرج!

ـ ابني! ابني! ياألفونسو!

ركض ألفونسو لملاقاتها، وحاول إيقافها حين رأى أنها تتجه نحو البئر. لم تكن أمي تفكر في شيء محدد حتى ذلك الحين؛

ولكنها حين رأت ملامح أخيها المرتعب، تذكرت عندئذ صرختي التي أطلقتها قبل نحو ساعة من ذلك، فأطلقتْ عويلاً مرعباً.

ـ آي! ابني! لقد انتحر! اتركني، اتركني! ابني يا ألفونسو! لقد قتلته!

حملوا أمي وهي غائبة عن الوعي. ولم يؤثر فيّ شيئاً يأس أمي، ذلك أنني كنت حياً في الحقيقة، وبكامل حيويتي، وكل ما هنالك أنني كنت أريد أن ألعب بسنوات عمري الثماني لعبة الانفعالات، بالطريقة التي يستخدمها الكبار في المفاجآت شبه التراجيدية: فيا للسعادة التي ستشعر بها عندما ستراني!

وفي أثناء ذلك كنت أتلذذ بإخفاق كفيلي. فكنت أدمدم وأنا ما أزال تحت الأوراق اليابسة:

ـ همم!... يريد أن يضربني!

نهضت بعد ذلك باحتراس، ثم جلست القرفصاء في جحري، وتناولت الغليون الشهير المحفوظ جيداً بين أوراق الشجر. وكانت تلك هي اللحظة المناسبة لتكريس كل جديتي من أجل إنهاء الغليون.

كان لذلك التبغ الذي ترطب وجف، ثم ترطب وجف مرات لا حصر لها، طعمٌ كطعم الفلفل وسُلفات الصودا، وكان أشد كثافة مما كان عليه في المرة الأولى. ولكنني بدأت مع ذلك المهمة التي كنت أعرف أنها قاسية وأنا أقطب جبيني وأشد بأسناني على مبسم الغليون.

دخنتُ ما أرغب في أن أقدر أنه ربع الغليون. ولست أتذكر إلا أن حقل القصب قد تحول تماماً إلى اللون الأزرق وبدأ يتراقص على بُعد إصبعين عن عينيّ. وراحت مطرقتان أو ثلاث مطارق من كل جانب من رأسي تحطم صدغي، بينما كانت معدتي التي أصبحت عند فمي، تسحب هي نفسها آخر أنفاس الدخان.

....

استعدت وعيي حين كانوا يحملونني على الأذرع إلى البيت. وبالرغم من حالة الإعياء والمرض الرهيبة التي كنت فيها، واصلت التظاهر بالنوم تحسباً مما يمكن أن يحدث. أحسست بذراعي أمي الهذيانيتين تهزانني:

- ابني الحبيب! إدواردو، ابني! آه يا ألفونسو، لن أسامحك إلى الأبد على الألم الذي سببته لي!

فكان خالي يقول لها:

- هيا يا ميرثيدس! كفاك جنوناً! ألا ترين أنه لم يصب بشيء!

وترد أمي وهي ترفع يديها إلى قلبها في زفرة هائلة:

- آه! أجل، لقد انقضى الأمر!... ولكن أخبرني يا ألفونسو، كيف أمكن ألا يصاب بأذى؟ يا لهذه البئر، رباه!...

الخال المحطم بدوره، تكلم بغموض عن انهيار التراب، وعن أرضية رخوة، مفضلاً ترك البحث عن الحل الحقيقي إلى لحظة أكثر هدوءاً، بينما لم تكن أمي المسكينة قادرة على الانتباه إلى رائحة التبغ الفظيعة التي تفوح من منتحرها.

وأخيراً فتحتُ عيني، وابتسمت، ثم عدت إلى النوم من جديد، بعمق واطمئنان هذه المرة.

كان الوقت متأخراً عندما أيقظني خالي ألفونسو وقال لي بصوته الأجش الصافر:

ـ ما الذي تستحق أن أفعله بك؟ في الصباح سأخبر أمك بكل شيء، وسترى عندئذ ما هي هذه الظرافات!

كنت ما أزال أرى بصورة غائمة، فقد كانت الأشياء تتراقص أمام عيني، وكانت معدتي ما تزال ملتصقة بحنجرتي. ولكنني رددت عليه مع ذلك قائلاً:

ـ إذا أنت أخبرت أمي بأي شيء، فإنني أقسم لك بأني سألقي هذه المرة بنفسي في البئر!

ربما كان ذلك صحيحاً. وعلى أي حال، فإن الوصي هز كتفيه بعد أن نظر إلي طويلاً، ثم رفع الشرشف الذي كان قد سقط قليلاً إلى كتفي. ودمدم:

ـ أرى أنه من الأفضل أن أكون صديقاً لهذا الميكروب.

فأجبته:

ـ وأنا كذلك.

وعدت إلى النوم.

الابــن

إنه يوم صيفي جائر في مسيونيس، بكل الشمس، والقيظ، والسكون الذي يهيئه الفصل. الطبيعة تشعر، وهي بكامل تفتحها، بالرضى عن نفسها.

ومثل الشمس، والقيظ، والسكون السائد، كان الأب يفتح قلبه كذلك للطبيعة.

ـ كن حذراً يا فتى ـ يقول لابنه مختصراً في هذه الجملة كل ملاحظات الحالة التي يدركها الابن تماماً.

ـ أجل يا أبي ـ يرد الفتى وهو يتناول البندقية ويملأ جيوب قميصه بالطلقات، ويزررها بحذر.

ـ عد في موعد الغداء ـ يلاحظ كذلك الأب.

ـ أجل يا أبي ـ يكرر الصبي.

يوازن البندقية في يده، يبتسم لأبيه، ويقبله من رأسه وينطلق.

يلاحقه أبوه بعض الوقت بعينيه ويعود إلى عمله لهذا اليوم، سعيداً بسعادة صغيره.

إنه يعلم أن ابنه، الذي تربى منذ طفولته المبكرة على اعتياد

الخطر والحذر منه، يمكنه أن يستخدم بندقية، وأن يصطاد شيئاً ما. ومع أنه طويل القامة جداً بالنسبة لسنه، فإنه لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره. ويبدو أن عمره أقل من ذلك بالنظر إلى صفاء عينيه الزرقاوين، اللتين مازالتا تحتفظان بنداوة المفاجأة الطفولية.

لا يحتاج الأب أن يرفع عينيه عن عمله لكي يتابع في ذهنه مسيرة ابنه: لقد اجتاز الدرب الأحمر وهو يمضى مباشرة إلى البرية عبر الأرض العشبية.

من أجل الصيد في البراري ـ صيد من النوع البسيط ـ لا بد من صبر أكبر مما يمكن لشبله أن يبديه. بعد اجتياز هذه الجزيرة الخلاء في البرية، سيمضي ابنه بمحاذاة حدّ نباتات الصبار حتى المستنقع، بحثاً عن حمائم، أو طيور طوقان[١]، أو أي زوج من البلشونات، مثل تلك التي اكتشفها صديقه خوان قبل أيام.

الآن فقط، يرسم الأب ابتسامة وهو يتذكر ولع الصبيين بهواية القنص. وهما لا يصطادان أحياناً سوى طير ياكوتورو أو سوروكوا[٢] ـ وهو أقل ـ ويعودان ظافرين. خوان إلى مزرعته حاملاً البندقية عيار تسعة ميليمترات التي أهداها هو نفسه إليه، وابنه إلى

---

(١) طوقان tucán: طائر أمريكي ريشه أسود تتخلله ألوان زاهية في الصدر والعنق.

(٢) ياكوتورو وسوروكوكا yacútoro-surucuá: كلمتان من لغة الغواراني. وهما تسمية لنوعين من الطيور. واسم الياكوتورو مشتق من صوته، إذ أنه يُصدر صوت «ياك» ويردده، وهو نوع من الدجاج البري أشبه بالتدرج.

الهضبة، ومعه بندقية سانت إيتين الضخمة، عيار ١٦، رباعية مغلاق الأمان وبارود أبيض.

هو نفسه كان هكذا أيضاً. ففي الثالثة عشرة من عمره كان مستعداً لتقديم حياته مقابل امتلاك بندقية. وابنه الذي في هذه السن، يملكها الآن؛ - ويبتسم الأب.

ليس من السهل مع ذلك، لأبِ أرمل، ليس له أي إيمان أو أمل آخر سوى حياة ابنه، أن يربيه مثلما فعل هو، حراً في محيطِ تحركه الضيق، واثقاً بقدميه الصغيرتين ويديه مذ كان عمره أربعة أعوام، مدركاً جسامة بعض الأخطار وضآلة قواه.

وكان على هذا الأب أن يناضل بقوة ضد ما يعتبره هو أنانيته. فما أسهل ما يخطئ يافعٌ الحساب، يخطو بقدمه في الفراغ، فيضيع ابن!

الخطر يتربص دائماً بالإنسان في أي سن كان؛ ولكن تهديده يتضاءل إذا ما اعتاد المرء منذ الصغر على عدم الاعتماد إلا على قواه الذاتية.

بهذه الطريقة ربى الأب ابنه. ولكي يتوصل إلى ذلك كان عليه أن يقاوم ليس قلبه وحسب، وإنما عذابات ضميره: لأن هذا الأب، ضعيف المعدة والنظرة، يعاني منذ بعض الوقت من الهلوسات.

لقد رأى ذكريات سعادة، مجسدة في وهم موجع، لا يمكن

لها أن تنبثق إلا من العدم الذي حبس نفسه فيه. ولم تفلت صورة ابنه من ذلك العذاب. لقد رآه مرة يتدحرج مضرجاً بالدم عندما قدح الصبي في مِخرطة المشغل رصاصةَ مسدس برابيلو، وكان ما يريد عمله هو برد إبزيم حزام صيده.

أمور فظيعة... أما اليوم، مع النهار الصيفي الملتهب والحيوي، الذي يبدو أن ابنه قد ورث حبه، يحس الأب بأنه سعيد، مطمئن، وواثق بالمستقبل.

في هذه اللحظة، ومن مكان غير بعيد، تدوي فرقعة.

ـ إنها بندقية السانت ـ إيتين... ـ يفكر الأب وهو يتعرف على الفرقعة ـ لقد نقصت حمائم الجبل حمامتان...

ودون أن يولي مزيداً من الاهتمام للحدث الطفيف، يستغرق الرجل مجدداً في عمله.

الشمس، وقد أصبحت عالية جداً، تواصل صعودها. وحيثما نظر ـ أحجار، تراب، أشجار ـ، يهتز في الحَرّ الهواءُ المتخلخل كما في فرن. ويطبع الجو أزيز عميق، يملأ الكائن كله، ويمتد إلى حيث يصل البصر، مُرَكِّزاً في هذه الساعة كل الحياة المدارية.

يلقي الأب نظرة إلى معصمه: إنها الثانية عشرة. ويرفع عينيه نحو البراري.

لا بد أن يكون ابنه في طريق العودة. ففي الثقة المتبادلة التي يضعها كل منهما في الآخر ـ الأب بفوديه المفضضين والصبي

بسنواته الثلاث عشرة ـ، لا مكان للخداع أبداً. فعندما يرد عليه ابنه: ـ أجل يا بابا، فإنه ينفذ ما يقوله. لقد قال إنه سيرجع قبل الثانية عشرة، وقد ابتسم الأب حين رآه يمضي.

ولم يرجع.

يعود الرجل إلى شغله، باذلاً جهده في تركيز اهتمامه على عمله. من السهل. من السهل جداً فقدان الإحساس بالوقت في البرية، والجلوس لحظة على الأرض للاستراحة دون حراك...!

وفجأة، يتوقف ضوء الهاجرة، والأزيز المداري، وقلب الأب، تتوقف كلها على إيقاع ما فكر فيه للتو: ابنه يرقد دون حراك...

لقد انقضى الوقت: إنها الثانية عشرة والنصف. يخرج الأب من مشغله، وحين يسند يده إلى منضدة الآلات، يتعالى من عمق ذاكرته دوي طلقة مسدس البارابيلو، وعلى الفور، ولأول مرة خلال الساعات الثلاث المنصرمة، يفكر في أنه لم يسمع أي شيء بعد دوي طلقة السانت ـ إيتين. لم يسمع دحرجة الأحجار تحت الخطى المعهودة. ابنه لم يرجع، والطبيعة توقفت عند حافة الغابة، بانتظاره...

أوه! لا يكفي طبعُ متمرس وثقة عمياء بتربية ابن لإبعاد شبح القضاء والقدر الذي يراه أبٌ كليل البصر منتصباً عند حدّ البرية. سهو، نسيانٍ، تأخر طارئ: لم يَجِد أي من هذه الأسباب الصغرى

التي يمكن لها أن تكون قد أخرت مجيء ابنه، متسعاً في ذلك القلب.

طلقة، طلقة وحيدة دوت، ومنذ وقت طويل. ومن بعدها لم يسمع الأب أي صوت، لم ير عصفوراً واحداً، ولم يجتز الأرض الخلاء أي شخص ليقول له إنه بينما هو يجتاز أحد حواجز الأسلاك، رأى مصيبة كبيرة...

ينطلق الأب مكشوف الرأس ودون منجل الماتشيتي. يقطع الأرض العشبية، ويتوغل في البرية، يمضي بحذاء حدّ الصبار دون أن يجد أدنى أثر لابنه.

ولكن الطبيعة ما زالت متوقفة. وعندما ذرع الأب دروب الصيد المعهودة وتفحص الأرض المستنقعية دون طائل، أيقن بأن كل خطوة يخطوها إلى الأمام ستقوده، بصورة محتومة ومشؤومة، إلى جثة ابنه.

لا يمكن لأي تأنيب يوجهه إلى نفسه أن يرثي لحاله. فليس هناك سوى الحقيقة الباردة، الرهيبة والناجزة: لقد مات ابنه لدى اجتياز أحد...

ولكن أين، في أي مكان! ثمة الكثير من الأسيجة هناك، والبرية شديدة... شديدة القذارة!... آه، شديدة القذارة!... بقليل من عدم الحذر لدى اجتياز الأسلاك والبندقية في يده...

يكتم الأب صرخة. لقد رأى ما يعلو في الهواء... آه، ليس هذا ابنه، لا!... ويعود إلى جهة أخرى، ثم أخرى، وأخرى...

لن يكسب شيئاً من رؤية لون وجهه وغم عينيه. هذا الرجل لم ينادِ ابنه بعد. فمع أن قلبه يناديه صارخاً، إلا أن فمه ما يزال أبكم. إنه يعرف جيداً أن مجرد ذكر اسمه، مجرد مناداته بصوت عال، سيكون اعترافاً بموته...

ـ صغيري! ـ أفلتت منه الكلمة فجأة. وإذا كان يمكن لصوت رجل قوي الشخصية أن يبكي، فلنغلق آذاننا شفقة حيال الغم الذي يجهر به ذلك الصوت.

لم يردّ عليه أحد ولا شيء. مدفوعاً بلسعات الشمس الحمراء، وقد شاخ عشر سنوات، يمضي الأب باحثاً عن ابنه الذي مات للتو.

ـ بني!... صغيري!... ـ ينادي بألفاظ تحبب يُخرجها من أعمق أعماقه.

فيما مضى، في ذروة السعادة والسلام، كان هذا الأب قد عانى من هلوسة تخيل ابنه متدحرجاً وجبهته مفتوحة برصاصة الكروم والنيكل. والآن، في كل ركن مظلم من الغابة يرى وميض أسلاك؛ ويرى عند أصل عمود سياج، مع البندقية الفارغة الملقاة جانباً... يرى ابـ...

ـ صغيري!... بني!...

القوى التي تسمح باستسلام أب مسكين مُهلوِس لأشد

الكوابيس فظاعة، تكون لها نهاية أيضاً. ورجلنا يشعر بأن قواه تفلت منه، حين يرى ابنه وهو ينفذ فجأة من درب جانبي.

يكفي لصبي في الثالثة عشرة أن يرى عن بُعد خمسين متراً ملامح أبيه الذي يمضي في الغابة دون منجل ماتشيتي، لكي يسرع الخطى بعينين مغرورقتين بالدموع.

ـ صغيري... ـ يدمدم الرجل، وينهار، مستنفداً، ليقعد على الرمل الموحل، محتضناً بذراعيه ساقيّ ابنه.

ويبقى الصبي، المطوق بتلك الطريقة، واقفاً؛ ولأنه يدرك ألم أبيه، فإنه يداعب رأسه برفق.

ـ مسكين يا أبتِ...

وأخيراً، لقد انقضى الوقت. وها قد بلغت الساعة الثالثة. فينطلقان معاً، الأب والابن، عائدين إلى البيت.

ـ كيف لم تنتبه إلى الشمس لكي تعرف الوقت؟... ـ تمتم الأول.

ـ بل انتبهت إليها يا أبي... ولكنني حين أردت الرجوع رأيت بلشونات خوان وتبعتها...

ـ يا للرعب الذي جعلتني أمرّ به يا صغيري!...

ـ بابا الحبيب... ـ غمغم الصبي أيضاً.

وبعد صمت طويل:

ـ وهل اصطدت البلشونات؟ ـ سأل الأب.

ـ لا...

إنه مجرد تفصيل تافه في نهاية المطاف. تحت السماء والهواء المتوهج، مكشوفاً في الأرض العشبية، يرجع الرجل إلى البيت مع ابنه، وعلى كتفي الابن، اللذين بعلو كتفيه، يضع ذراعه الأبوي السعيد. يرجع مبللاً بالعرق، وبالرغم من انكسار الجسد والروح، فإنه يبتسم بسعادة...

....

يبتسم بسعادة هلوسة... فهذا الأب يمضي وحيداً. لأنه لم يجد أحداً، وذراعه يستند إلى الفراغ. فوارءه، عند أصل عمود سياج، يرقد ابنه المحبوب بساقين مرفوعتين إلى أعلى، متشابكتين بالسلك الشائك، ميتاً منذ الساعة العاشرة صباحاً.

التهاب السحايا وظلها

لم أستطع التخلص من ذهول المفاجأة. أية شياطين تعني الرسالة التي تلقيتها من فونيس، ثم الحديث الذي تبادلته مع الطبيب؟ أعترف بأنني لا أفهم كلمة واحدة من ذلك كله.

وإليكم ما جرى: قبل أربع ساعات، أي في السابعة صباحاً، تلقيت بطاقة من فونيس يقول فيها مايلي:

صديقي العزيز:

إذا لم يكن لديك أي مانع، أرجو منك أن تمر ببيتي هذه الليلة. وإذا ما توفر لي متسع من الوقت، فسوف أحضر إليك بنفسي. مع مودة

صديقك

لويس ماريا فونيس

هنا بدأت مفاجأتي. فحسب ما أعرفه، ليس هناك من يوجه دعوة في الساعة السابعة صباحاً من أجل محادثة في الليل، إلا إذا كان ثمة أسباب جدية وراء ذلك. فما الذي يريده فونيس يا ترى؟

الصداقة التي تربطني به غامضة إلى حد ما، أما بالنسبة إلى بيته، فقد زرته مرة واحدة. والحقيقة أن له أختين على قدر من الجمال.

هذا ما يتعلق بفونيس. وبعد ساعة من ذلك، في اللحظة التي كنت أغادر فيها البيت، وصل الدكتور ايستاراين، وهو شخص آخر كنت زميلاً له في المدرسة العامة، وكانت تربطني به أدنى الصلات، وبطريقة أبعد من فونيس.

تحدث الرجل أولاً في أمور عامة لكي ينتهي إلى القول:

ـ اسمع يا دوران: أنت تدرك جيداً أنني لم أحضر إليك في هذا الوقت المبكر للتحدث في سخافات؛ أليس كذلك؟

ولم أستطع إلا أن أرد عليه:

ـ هذا ما أظنه.

ـ الأمر واضح إذن. ولهذا اسمح لي بأن أوجه إليك سؤالاً. سؤالا واحداً فقط. أما كل ما يتضمنه السؤال من تهور، فسأوضحه لك في الحال. هل تسمح؟

فأجبته بانفتاح، متخذاً جانب الحذر في الوقت نفسه:

ـ يمكنك أن توجه كل الأسئلة التي تشاء.

عندئذ نظر ايستاراين إلي مبتسماً، مثلما يبتسم الرجال فيما بينهم، ووجه إلي هذا السؤال غير المعقول:

ـ أي نوع من الميل تشعر به نحو ماريا إلفيرا فونيس؟

آه، آه! هذا هو الأمر إذن! ماريا إلفيرا فونيس، شقيقة لويس ماريا فونيس، جميعهم في أسمائهم شيء من ماريا! ولكنني لا أكاد أعرف هذه الفتاة! ولهذا لم يكن غريباً أن أنظر إلى الطبيب مثل من ينظر إلى مجنون، وأكرر قائلاً:

ـ ماريا إلفيرا فوينس؟ ليست هناك أية ميول من أي نوع. إنني لا أكاد أعرفها. والآن...

فقاطعني:

ـ اسمح لي. أؤكد لك أن الأمر جدّي جداً... هل يمكنك أن تعطيني كلمة صديق بأنه لا وجود لأي علاقة بينكما؟

فقلت له أخيراً:

ـ هل أنت مجنون! لاشيء على الإطلاق، ولا أي شيء! وأكرر لك ثانية، إنني لا أكاد أعرفها، ولا أظنها هي أيضاً تتذكر أنها قد رأتني من قبل. لقد تحدثت معها لدقيقة، ولنقل لدقيقتين أو ثلاث دقائق في بيتها، وليس هناك أي شيء سوى ذلك. وأكرر عليك للمرة العاشرة أنني لا أشعر بأي ميل خاص نحوها.

فدمدم الرجل وهو ينظر إلي بتمعن:

ـ هذا غريب.. في منتهى الغرابة...

بدأ الطبيب يبدو لي سمجاً، بالرغم من أنه طبيب لامع، وهو يطأ أرضاً لا علاقة لها مطلقاً بتطلعاته المهنية. فقلت له:

ـ أظن أنه صار من حقي الآن...

ولكنه قاطعني من جديد:

ـ أجل، من حقك بالطبع... ولكن، هل يمكنك الانتظار حتى الليل؟ ثم أضاف وهو ينظر إلى عيني مباشرة: ـ ستكفي كلمتان لكي تفهم أن المسألة قد تكون أي شيء إلا المزاح... فالفتاة التي نتحدث عنها مريضة جداً، إنها توشك على الموت... هل تفهم شيئاً؟

فأجبته:

ـ ولا كلمة واحدة.

وأيدني في ذلك وهو يهز كتفيه:

ـ ولا أنا أيضاً. ولهذا قلت لك إن المسألة جدية جداً... سنعرف شيئاً عن الأمر هذه الليلة. هل ستذهب؟ أرى أن ذلك ضروري.

فقلت وأنا أهز كتفي مرة أخرى:

ـ سأذهب.

وهذا هو السبب الذي أمضيت بسببه النهار كله وأنا أتساءل مثل أحمق عن العلاقة ما بين مرض أخت فونيس الخطير، والتي لا تكاد تعرفني، وبيني أنا الذي لا أكاد أعرفها.

***

إنني آتٍ من بيت آل فونيس. إنه أغرب أمر رأيته في حياتي. إن

التقمص، واستحضار الأرواح، والتخاطر وكل أمور العالم الباطني غير المعقولة الأخرى، ليست شيئاً يذكر بالمقارنة مع هذا الأمر، مع لامعقولي الخاص الذي وجدت نفسي غارقاً فيه. إنها مسألة صغيرة لإيصال المرء إلى الجنون. فانظر:

ذهبت إلى آل فونيس. قادني لويس ماريا إلى غرفة المكتب. تحدثنا قليلاً، وبذلنا جهدنا كأحمقين ـ كلانا كنا نعرف ذلك ويتفادى أحدنا النظر إلى عيني الآخر ـ في الحديث عن جواميس ضائعة. وأخيراً دخل ايستاراين، فخرج لويس ماريا تاركاً لنا على الطاولة علبة السجائر، ذلك أن سجائري كانت قد نفدت. وعندئذ روى لي زميل دراستي ما هو آتٍ باختصار:

قبل أربع أو خمس ليال، وبعد انتهاء حفلة استقبال في بيتها بالذات، أحست ماريا إلفيرا بالتوعك ـ بسبب حمام بارد جداً في مساء ذلك اليوم حسب قول أمها ـ. والمؤكد هو أنها أمضت الليل منهوكة، وبألم شديد في رأسها. وفي صباح اليوم التالي ساءت حالتها، ورافق ذلك ارتفاع في الحرارة؛ وفي الليل تبين أنها مصابة بالتهاب سحائي مع كل ما يرافقه. وكان الهذيان بصورة خاصة واضحاً ومديداً إلى أقصى الحدود. ثم يتلوه جزء من المستحيل تهدئته. وقد تركزت الانعكاسات السيكولوجية للهذيان، إذا صح التعبير، وحامت منذ الليلة الأولى حول قضية واحدة، قضية واحدة وحسب كانت تمتص حياتها بالكامل. ـ وتابع ايستاراين ـ لقد كانت فكرة ثابتة، فكرة بسيطة متسلطة على عقلها مع حرارة تبلغ إحدى

وأربعين درجة مئوية. كانت عينا المريضة مصوبتين نحو الباب، ولكنها لم تكن تنادي أحداً. وكان بالإمكان الشعور بحالتها العصبية في ذلك الجزء الأبكم الذي يقتلها، ومنذ يوم أمس، فكرت أنا وزملائي بتهدئة تلك الحالة... لا يمكن لها أن تستمر على هذه الحال. واختتم قائلاً: ـ وهل تعرف من كانت تنادي حين كانت الغيبوبة تسحقها؟

ـ لست أدري... أجبته بذلك وأنا أحس بإيقاع قلبي يتبدل فجأة.

فقال لي وهو يطلب مني ناراً لسيجارته:

ـ كانت تناديك أنت.

وقد بقينا صامتين لبرهة بالطبع. ثم قال لي أخيراً:

ـ ألم تفهم بعد؟

ـ ولا كلمة واحدة... تلعثمت مذهولاً، وكان ذهولي شديداً مثلما يمكن أن يحدث لمراهق يرى وهو خارج من المسرح أن الممثلة الأولى تنظر إليه من عتمة عربتها مستبقية بابها مفتوحاً له... ولكنني كنت قد بلغت الثلاثين من عمري تقريباً، فسألت الطبيب عن التفسير الذي يمكنه أن يقدمه لذلك.

ـ تفسير؟ ليس هناك أي تفسير. ولو في أدنى الحدود. وما الذي تريد أن نعرفه عن هذا؟ آه، حسن... إذا كنت مصراً على الحصول على تفسيرٍ ما، فافترض أن هناك في أرض ما مليون بذرة أو حتى مليوني بذرة مختلفة، مثلما في أي مكان. وفجأة يحدث زلزال،

فيحرك ذلك كله حركة شيطانية، فيسحق كل ما هناك من بذور، وتنبت بذرة واحدة، بذرة لا على التعيين، من الأعلى أو من القاع، لا فرق. نبتة رائعة... هل يكفيك هذا التفسير؟ لا يمكنني أن أقول لك أي كلمة أخرى. لماذا كنت أنت بالتحديد تلك البذرة المختارة في دماغها الهاذي، أنت الذي لا تكاد تعرفها، والذي لا تكاد المريضة تعرفه أيضاً؟ ماذا تريدني أن أعرف عن هذا؟

ـ لا ريب أن... رددت على نظرته المتسائلة، وكنت أشعر في الوقت نفسه ببرودة تجتاحني وأنا أرى نفسي وقد تحولت إلى هدف مباشر لهذيان عقلي أولاً، وعامل علاج ثانياً.

في هذه اللحظة دخل لويس ماريا، وقال للطبيب:

ـ أمي تريدك.

ثم التفت نحوي بابتسامة مغتصبة:

ـ هل أخبرك ايستاراين بما يحدث؟... كنت سأجن لو كان شخصاً آخر...

هذا الذي قاله عن **شخص آخر** يستحق تفسيراً. فآل فونيس، ومنهم خصوصاً الأسرة التي بدأتُ أصبح جزءاً مضحكاً منها، لديهم اعتزاز كبير بالنفس؛ وأظن أن نسبهم العريق هو السبب في ذلك، وإن كان يبدو لي أن ثروتهم الكبيرة هي السبب الأول. ولأنهم كذلك، فإنهم يُبدون الرضا لأن هذيانات ابنتهم الجميلة الغرامية قد انصبت علي أنا بالذات: المهندس كارلوس دوران،

ولم تَحُمْ حول شخص عادي من مكانة اجتماعية دنيا. ولهذا شكرت بيني وبين نفسي التقدير الذي يخصني به النبيل الشاب.

بدأ لويس ماريا الحديث وهو يحرك علبة الثقاب فوق الطاولة بانزعاج:

ـ إنه أمر غريب... ألن يكون لديك ما يمنعك من مرافقتنا لبعض الوقت؟ أنت تعرف، أليس كذلك؟ أظن أن ايستاراين قد رجع.

وبالفعل، رأيت الطبيب ايستاراين يدخل.

ـ لقد بدأتْ من جديد... ـ قال ذلك وهو يهز رأسه وينظر إلى لويس ماريا وحده. عندئذ توجه لويس ماريا إلي بابتسامته الاضطرارية الثالثة هذه الليلة:

ـ هل نذهب إليها؟

ـ بكل سرور. قلت له ذلك، ومضينا معاً.

دخل الطبيب دون أن يحدث أي ضجة، ثم دخل لويس ماريا، وأخيراً دخلت أنا، بفاصل قصير بين كل واحد منا والآخر. كان أول ما صدمني، مع أنه كان علي أن أنتظر ذلك، هو العتمة الخفيفة السائدة في الغرفة. وقد تطلعتْ إليّ أم المريضة وأختها بثبات، وردتا بانحناءة خفيفة من رأسيهما على الانحناءة التي قمت بها، إذ بدا لي أنه يجب علي عدم تجاوز ذلك. وقد بدتا لي كلتاهما أطول بكثير مما هما عليه. نظرتُ إلى السرير، ورأيت

تحت كيس الثلج عينين مفتوحتين تنظران نحوي. تطلعتُ إلى الطبيب متردداً، ولكنه أومأ إلي بعينه إيماءة غير ملحوظة، فتقدمتُ نحو السرير.

ومثل أي رجل، كانت لدي فكرة ما عن العينين حين تنظران إلى أحدنا وهو يدنو منهما. ولكن نور هاتك العينين، والسعادة التي غمرتهما بينما أنا أقترب، ودوار البهجة الذي لمع فيهما ـ إلى حد الحَوَل ـ عندما انحنيت فوقهما، وهو شيء لن أرى مثيلاً له على الإطلاق في غرام طبيعي عند درجة الحرارة ٣٧.

تلعثمتْ ببعض الكلمات، ولكن بصعوبة بالغة من شفتيها الجافتين، فلم أسمع شيئاً. وأظن أنني ابتسمت كأحمق (وماذا يمكنني أن أفعل، أريدكم أن تخبروني!)، ومدت هي حينئذ ذراعها نحوي. وكانت محاولتها خاطئة تماماً لدرجة أنني لم أجد بداً من إمساك يدها.

دمدمت قائلة:

ـ اجلس هنا.

سحب لويس ماريا الكرسي باتجاه السرير وجلست عليه.

تأملوا الآن إذا ما كان هناك شخص قد تعرض إلى وضع أشد غرابة وجنوناً من هذا.

لقد كنت محط الأنظار، باعتباري البطل، وأنا أمسك بيدي يداً تتوقد بالحمى وبحب في غير مكانه تماماً. وفي الجهة المقابلة كان

يقف الطبيب. وعند قدمي السرير جلس لويس ماريا، بينما وقفت أم المريضة وأختها مستندتين إلى نهاية السرير. وكانوا جميعهم ينظرون إلينا مقطبين دون أن يقولوا شيئاً.

ما الذي سيقوله؟ ما الذي سيفعله؟ لابد أنهم يفكرون بهذا للحظة. أما المريضة من جهتها، فكانت ترفع عينيها عن عيني حيناً وتدور بهما بقلق قاس على وجوه الحاضرين واحداً واحداً، دون أن تتعرف عليهم، ثم تعود لتلقي بنظرها عليّ باطمئنان وسعادة عميقين.

كم من الوقت بقينا على تلك الحال؟ لست أدري؛ ربما نصف ساعة، وربما أكثر من ذلك بكثير. لقد حاولت في إحدى اللحظات سحب يدي، ولكن المريضة ضغطت عليها بشدة أكبر بين يديها.

ـ لم يحن الوقت بعد... دمدمت وهي تحاول أن تجد وضعاً أكثر راحة لرأسها. فهرع الجميع، وشدوا الشراشف ورتبوها، ثم تجددت الحركة السابقة، وعادت العينان تحدقان فيّ بسعادة. ولكنهما كانتا تنقلبان قلقتين بين حين وآخر وهما تجوبان الوجوه المجهولة. رفعتُ بصري مرتين أو ثلاث مرات إلى الطبيب؛ ولكنه كان يخفض رموشه، مشيراً لي بأن أنتظر. وقد كان محقاً في النهاية، لأن المريضة أغمضت عينيها فجأة، كما في حلم مباغت، وغرقت في النوم.

خرجنا جميعنا باستثناء الأخت التي احتلت مكاني على المقعد.

لم يكن من السهل قول أي شيء ـ بالنسبة لي على الأقل. وأخيراً توجهت الأم إليّ بابتسامة جافة وكئيبة:

ـ ياله من أمر فظيع، أليس كذلك؟ كم هو محزن!

فظيع، فظيع! لم يكن المرض، وإنما الوضع هو الذي بدا لهم فظيعاً. كان واضحاً أن كل الملاطفات والمجاملات سوف تنصب علي في ذلك البيت. في البداية الأخ، ثم بعد ذلك الأم... أما الطبيب الذي كان قد تركنا للحظة، فقد خرج راضياً جداً عن حالة المريضة؛ إنها ترقد بوداعة لم تعرفها حتى الآن. تطلعتْ الأم إلى جهة أخرى، ونظرت أنا إلى الطبيب: أيمكنني الانصراف، أجل بالطبع، فودعتهم ومضيت.

لقد نمت نوماً سيئاً تملؤه أحلام لا علاقة لها بحياتي المعتادة. والذنب في ذلك يقع على عاتق آل فونيس، بمن فيهم لويس ماريا، والأم، والأختان، والأطباء والأقارب. لأننا إذا دققنا جيداً في الوضع، فإنه على الشكل التالي:

هناك فتاة في التاسعة عشرة من عمرها، وهي جميلة جداً دون شك، ولكنها لا تكاد تعرفني وليست لي أي أهمية لديها. هذا بالنسبة إلى ماريا إلفيرا. وهناك من جانب آخر، رجل شاب أيضاً ـ وهو لمزيد من المعلومات مهندس ـ وليس يتذكر أنه فكر مرتين متتاليتين بالشابة المعنية. كل هذا عقلاني ومفهوم وطبيعي.

ولكن الفتاة الجميلة تمرض، بداء السحايا أو شيء من هذا

القبيل، وفي هذيان الحمى، في هذيان الحمى وحده وحسب، تبدو متأججة بالحب. أهو ابن عم، أو شقيق إحدى صديقاتها، أو شاب تعرفه جيداً؟ لا يا سيدي؛ إنها مغرمة بي.

أليس هذا كله حماقة؟ ولهذا اتخذت قراري الذي سأنقله إلى أول شخص من تلك الأسرة المباركة يصل إلى باب بيتي.

***

ـ أجل، هذا واضح! ومثلما كنت أنتظر، جاء الطبيب ايستارابن ظهر اليوم لرؤيتي. ولم أستطع إلا أن أسأله عن المريضة وسحاياها.

فقال لي:

ـ أتقول سحايا؟ الله وحده يعلم ما هو الداء! لقد بدا كذلك في البداية، وحتى الليلة الماضية أيضاً... أما اليوم فليست لدينا أي فكرة عما يمكن أن يكون مرضها.

قلت:

ـ ولكنه مرض دماغي على أي حال...

ـ وشوكي بالطبع... مع أعراض أخرى لا نعرف كنهها... هل تفهم شيئاً في أمور الطب؟

ـ بصورة غامضة جداً...

ـ حسن؛ هناك حمى متقطعة لا نعرف مصدرها... لقد كانت

حالة تنحدر بسرعة نحو الموت... وهناك الآن تراجع في ذلك كله، تاك ـ تاك ـ تاك، مثل دقات الساعة بالضبط...

فقلتُ بإلحاح:

ـ ولكن الهذيان يبقى موجوداً؟

ـ أظن ذلك! كل شيء وارد... وبالمناسبة؛ إننا ننتظر مجيئك هذه الليلة.

لقد جاء دوري الآن لأمارس الطب على طريقتي. قلت له إنني أديت دوري العلاجي في الليلة الفائتة، وإنني لا أفكر في الذهاب مرة أخرى. فنظر ايستاراين إلي بتمعن:

ـ لماذا؟ ما الذي حدث؟

ـ لاشيء، وكل ما هنالك أنني لا أجد حاجة لوجودي هناك... قل لي: هل لديك فكرة عما يعنيه أن يكون المرء في وضع مضحك حتى الإذلال؛ نعم أم لا؟

ـ ليس الأمر على هذه الصورة...

ـ بلى، إنه هكذا، القيام بدور أخرق... إنني أستغرب عدم تفهمك!

ـ أفهم جيداً... ولكن يبدو لي موقفك ـ ولا تغضب من ذلك ـ أقرب إلى الأنانية.

قفزت:

ـ جميل جداً! أنانية! ألا يخطر لك أي شيء آخر! يبدو لكم نوعاً من الأنانية عدم الذهاب للجلوس هناك مثل أحمق لكي تمسك يدي طوال الليل أمام كل أسرتها المقطبة. إذا كان يبدو لكم ذلك كله مجرد مسألة أنانية، فرتبوا الأمر فيما بينكم. أما أنا فلدي أشياء أخرى أعملها.

ويبدو أن ايستاراين فهم الجزء الحقيقي مما قلته، لأنه لم يعد يلح، ولم نعد إلى الحديث في الموضوع إلى أن انصرف.

كل هذا جيد. أما ما هو غير ذلك، فهو أنني تلقيت قبل عشر دقائق رسالة من الطبيب، هذا مضمونها:

صديقي دوران:

بالرغم من كل شحنتك من السخط، فإن وجودك لابد منه هذه الليلة. افترضْ أنك تقوم مرة أخرى بدور المهدئ، المُنوِّم بأقل قدر من هياج الأعصاب، واحضر.

لقد قلت قبل لحظة أن أسوأ ما في الأمر هو الرسالة الآنفة. وأنا محق في ذلك، لأني لم أكن أنتظر منذ الصباح إلا هذه الرسالة...

وعلى امتداد سبع ليال متتالية ـ منذ الحادية عشرة وحتى الواحدة بعد منتصف الليل، وهي اللحظة التي تتراجع فيها الحمى، ومعها الهذيان ـ كنت أبقى إلى جوار ماريا إلفيرا فونيس، قريباً جداً منها مثلما يمكن أن يكون عاشقان. كانت تمد لي يدها أحياناً مثلما

فعلتْ في الليلة الأولى، وتنهمك في ليال أخرى بالتلعثم باسمي وهي تنظر إلي. إنني أعرف جيداً أنها تحبني بعمق وهي في هذه الحالة، ولست أجهل كذلك أنها في لحظات صحوها لا تبدي أي اهتمام بوجودي، حالياً ومستقبلاً. وكان ذلك يخلق حالة سيكولوجية فريدة يمكن لروائي أن يستخلص منها شيئاً ما. أما بالنسبة إلي، فيمكنني القول إن تلك الحياة العاطفية المزدوجة قد هزت قلبي بعنف. لقد كان الوضع كالتالي: لدى ماريا إلفيرا، إذا لم أكن قد قلت ذلك من قبل، أجمل عينين في الدنيا. صحيح أنني لم أر في نظرتها في الليلة الأولى إلا انعكاساً لحالتي المضحكة كعلاج غير ضار. وفي الليلة التالية كان إحساسي أقل بقصوري الحقيقي. وفي المرة الثالثة لم أجد صعوبة في الإحساس بشيء من السعادة التي كنت أتظاهر بها، ومنذ ذلك الحين أعيش وأحلم بهذا الحب الذي يأتي الهذيان ليربط فيه بين عقلي وعقلها.

ما العمل؟ أعرف أن هذا كله وضع انتقالي، وأنها في النهار لا تعرف من أكون، وأنا نفسي ربما لا أشعر نحوها بالحب حين أراها واقفة. ولكن أحلام الحب، حتى وإن كانت تقتصر على ساعتين وعلى حرارة تبلغ أربعين درجة مئوية، كانت تختفي في النهار، وأكثر ما أخشاه هو أنه إذا كانت هناك مخلوقة في الدنيا سأبادلها الحب في ضوء النهار، فإنها لن تكون صاحبة ذلك الحب الليلي الباطل... الحب! إنه ظل حب وحسب... وأفكر بغم في اليوم الذي

سيعتبر فيه ايستاراين مريضته بمنجى من الخطر، وبأنها لم تعد بحاجة إلي.

إنها قسوة يمكن أن يدركها بكل أبعادها اللطيفة أولئك الرجال العاشقين ـ لظل أو سواه.

***

لقد خرج ايستاراين للتو. قال لي أن المريضة تواصل التحسن، وأنني سأجد نفسي عما قريب متحرراً من ماريا إلفيرا.

قال لي:

ـ أجل يا صديقي. ستتحرر من السهرات المضحكة، ومن الغراميات الذهنية والجبهات المقطبة... هل تتذكر؟

لابد أن وجهي لم يعكس سعادة كبيرة، لأنه هو أيضاً ضحك بمرح وأضاف قائلاً:

ـ سنقدم لك مقابل ذلك تعويضاً... لقد عاش آل فونيس هذه الأيام الخمسة عشر ورؤوسهم في الهواء، فلا تستغرب إذن نسيانهم لأشياء كثيرة، خصوصاً تلك المتعلقة بك... ولكننا الليلة سنتعشى معاً. فلولا وجودك، ولولا ذلك الغرام، لما عرفت كيف كان سينتهي الوضع... ما قولك؟

وأجبته:

ـ أقول إنني أميل إلى رفض الشرف الذي يعرضه علي آل فونيس بقبولي على مائدتهم.

فانفجر ايستاراين ضاحكاً:

ـ لا تمزح!... أكرر لك أنهم ما كانوا يعرفون أين هي رؤوسهم...

ـ ولكنهم من أجل الأفيون والمورفين، ومن أجل مهدئ الآنسة كانوا يعرفون، أليس كذلك؟ لا يمكنهم أن ينسوني في تلك الأمور!

اكتسى وجه الرجل بالجدية ونظر إلي بتمعن.

ـ أتعرف ما الذي أفكر فيه يا صديقي؟

ـ قل لي.

ـ في أنك الشخص الأكثر سعادة على وجه الأرض.

ـ أنا، سعيد؟...

ـ ومحظوظ أيضاً. أتفهمني الآن؟

وبقي ينظر إليّ. فقلت في نفسي: همم! إما أنني مجنون، وهو الاحتمال الأكبر، وإما أن هذا المتأنق يستحق أن أعانقه بشدة إلى أن أكسر ميزان الحرارة الذي في جيبه. إن هذا الشخص الخبيث يعرف أكثر مما يُظهر، وربما، ربما... ولكنني رجعت إلى فرضية الجنون لأنها أكثر احتمالاً.

وكررت مع ذلك:

ـ سعيد؟... من أجل هذا الحب الغريب الذي اخترعته أنت بالتهاب السحايا؟

وعاد ايستاراين ينظر إلى بإمعان، ولكنني أظن أنني لمحت هذه المرة لمسة غامضة، غامضة جداً، من المرارة في نظرته.

ـ وحتى لو لم يكن سوى هذا، أيها البليد العظيم... ـ دمدم بذلك وهو يمسك بذراعي لنخرج.

وفي الطريق ـ وقد ذهبنا إلى بار «اغيلا» لتناول كأس فِرموت ـ أوضح لي جيداً ثلاثة أمور.

أولا: إن وجودي إلى جانب المريضة كان ضرورياً جداً، بسبب حالة الانفعال ـ الخمود، كلاهما معاً، في أثناء هذيانها. ثانياً: إن آل فونيس قد فهموا الأمر على هذا النحو بلا زيادة أو نقصان، على الرغم مما تنطوي عليه تلك المغامرة من غرابة وكذب وبعد عن اللياقة، مع وعيهم بالطبع لما في كل ذلك الحب من تصنع. ثالثاً: إن آل فونيس قد وثقوا ببساطة بتهذيبي، بسبب إدراكي ـ بكل وضوح ـ للمغزى العلاجي الذي ينطوي عليه حضوري أمام المريضة، ومثول المريضة أمامي.

فقلت على سبيل التعليق:

ـ وخصوصاً هذا الأمر الأخير، أليس كذلك؟ فالهدف من كل هذا الحديث هو: ألا أفكر مطلقاً في أن ماريا إلفيرا تشعر بأي ميل حقيقي تجاهي. أليس هذا هو المطلوب؟

فهز الطبيب كتفيه:

ـ طبعاً! ضع نفسك مكانهم...

وقد تعشيت الليلة الماضية في بيت آل فونيس. لم يكن عشاء مرحاً تماماً، مع أن لويس ماريا على الأقل أبدى الكثير من المودة تجاهي. وأعني أن أمه كانت كذلك أيضاً، ولكن كل جهودها لجعل المأدبة بهيجة في نظري، كانت تكشف بوضوح عن أنها لا ترى فيّ إلا دخيلاً كانت ابنتها تفضله عليها ألف مرة في بعض الساعات. إنها تشعر بالغيرة، ويجب ألا ندينها في هذا الأمر. وما عدا ذلك، كانت تتناوب مع ابنتها الثانية الذهاب لرؤية المريضة. وكانت هذه الأخيرة قد أمضت يوماً طيباً، فللمرة الأولى منذ خمسة عشر يوماً لم تتعرض هذه الليلة لارتفاع جدي في حرارتها، ومع أنني بقيت حتى الساعة الواحدة نزولاً عند طلب ايستاراين، فقد رجعت إلى بيتي دون أن أتمكن من رؤيتها ولو للحظة واحدة. هل يمكن فهم هذا؟ ألا أراها طوال اليوم! آه! لو أن حرارة من أربعين أو ثمانين أو مئة وعشرين درجة تنزل على رأسها هذه الليلة...

وها هي ذي! : رسالة من سطر واحد من المبارك ايستاراين:

الهذيان من جديد. أحضر فوراً.

كل ما قلته سابقاً يكفي لأن يصيب بالجنون رجلاً متكتماً مثلي. فانظروا إلى هذا الآن:

حين دخلت ليلاً، مدت ماريا إلفيرا ذراعها نحوي مثلما فعلت في المرة الأولى. وأراحت وجهها على خدها الأيسر، وثبتت عينيها فيّ وهي في وضعها المريح ذاك. لست أدري ما الذي كانت تقوله لي عيناها: ربما كانت تمنحني كل حياتها وكل روحها في استسلام سعادة لانهائية. قالت لي شفتاها شيئاً، وكان علي أن أنحني لأسمعها.

ابتسمت قائلة:

ـ إنني سعيدة.

وبعد مرور لحظة على ذلك استدعتني عيناها مرة أخرى.

ـ وفيما بعد... ـ دمدمتْ بصعوبة وهي تغمض عينيها ببطء. وأظن أن الأفكار قد أفلتت منها فجأة. ولكن الضوء، ذلك الضوء الجنوني الذي كان يشتت نظرتها في ومضات سعيدة، عاد يغمر عينيها من جديد. وحينئذ سمعت بوضوح كامل، وأحسست جيداً بهذا السؤال في وجهي:

ـ وعندما أشفى، ولا تبقى ثمة هذيانات... هل ستبقى تحبني؟

جنون يمتطي قلبي مفرشخاً! **فيما بعد!** عندما لا تعود **ثمة هذيانات!** ولكن، هل جميعنا مجانين في هذا البيت، أم أن هناك صدى ينعكس خارجي لجزعي الدائم من تلك الـ «**فيما بعد**»؟ كيف يمكن لها أن تقول هذا؟ فيما بعد يا ماريا إلفيرتي....

لست أدري بماذا أجبتها؛ وأظن أن أي شيء كان سيستثير

استنكار ذويها لو أنهم سمعوني. ولكنني ما إن همستُ، وما إن همستْ هي مبتسمة... حتى غطت في نوم عميق.

في طريق عودتي إلى البيت كان رأسي دوامة متوقدة، مع رغبة مجنونة في القفز في الهواء وإطلاق صرخات السعادة. ومن منا يستطيع أن يقسم أنه ما كان سيفعل الشيء نفسه؟ لأنه لكي تكون الأمور واضحة يجب طرحها كما يلي: المريضة الهذيانية، بسبب شذوذ سيكولوجي ما، تحب في هذيانها **حصراً** رجلاً هو (س). هذا من جهة. ومن جهة أخرى، فإن (س) نفسه لا يشعر لسوء الحظ بأن لديه القوة على الاكتفاء بدوره العلاجي. وعندئذ تهمس المريضة في نوبة سحاياها وانعدام وعيها ـ في انعدام وعيها غير المسؤول ـ قائلة لصديقها:

وعندما أشفى من الهذيان... ستبقى تحبني؟

هذا هو ما أدعوه أنا حالة جنون صغيرة، واضحة وفاقعة. عندما وصلت إلى البيت ليلاً ظننت للحظة أنني قد توصلت إلى الحل، وأنه سيكون التالي: ماريا إلفيرا في حُمّاها تحلم بأنها مستيقظة. ومن هو الذي لم يحلم بأنه يحلم؟ ليس هناك بالطبع تفسير أشد بساطة من هذا.

ولكن حين تكون على شاشة هذا الحب الكاذب عينان واسعتان، تضمخاننا بالسعادة وتطفحان بحب لا يمكن تكذيبه، وحين نرى هاتيك العينين تجوبان باستغراب وجوه الأقارب لتتوقفا

بسعادة مذهولة عند شخص بعينه، فإنه يحق لأحدنا رغم هذا الهذيان ومئة ألف هذيان مثله، أن يحلم كل ليلة بذلك الحب، أو بوضوح أشد: يحلم بماريا إلفيرا فونيس.

أحلم وأحلم وأحلم! لقد انقضى شهران، وأظن أحياناً أنني مازلت أحلم. رباه! أكنت أنا أم لا ذاك الذي مدت إليه يدها، ذراعها العاري حتى المرفق، حين كانت الحمى تحوّل الوجوه المحبوبة في البيت إلى وجوه عدائية؟ أكنت أنا أم لا ذاك الذي انطفأت في عينيه، خلال دقيقتين مديدتين من الأبدية، نظرة الحب التي نظرتها ماريا إلفيرا؟

أجل، كنت أنا. ولكن ذلك كله انتهى، مضى، مات، وكأنه لم يكن. ومع ذلك...

***

رأيتها من جديد بعد عشرين يوماً. وكانت قد شفيت وتعشت معنا. كان هناك في البداية تلميح واضح إلى هذيانات المريضة العاطفية، كل ذلك بكياسة البيت الكبيرة، وقد شاركت فيها بالقدر الذي أتيح لي، فخلال تلك الأيام العشرين التي انقضت لم يكن همي الأصغر هو التفكير في المداراة التي يجب علي أن أبديها في هذا اللقاء الأول.

ومع ذلك فقد كان كل شيء على ما يرام. إذ قالت لي الأم باسمة:

وحضرتك، هل استرحت من كل الإرهاق الذي سببناه لك؟

فقلت وأنا أضحك أيضاً:

ـ أوه، لقد كان شيئاً بسيطاً. وأنا مستعد الآن لأن أتحمله من جديد...

وابتسمت ماريا إلفيرا بدورها:

ـ حضرتك مستعد، أما أنا فأؤكد لك أنني لست مستعدة!

فنظرت إليها أمها بأسى:

ـ يا لصغيرتي المسكينة! حين أفكر بالحماقات التي خطرت لكِ... أخيراً ـ ثم التفتت نحوي شاكرة: ـ يمكننا أن نقول إنك الآن من أهل البيت، وأؤكد لك أن لويس ماريا يقدرك عالياً جداً.

وضع المذكور يده على كتفي وقدم لي سيجارة:

ـ دخن، دخن، ولا تعر ذلك اهتماماً.

فأنبته أمه بشيء من الجدية:

ـ ما هذا يالويس ماريا! يمكن لمن يسمعك أن يظن أننا نقول أكاذيب لدوران!

ـ لا يا أماه؛ ما تقولينه صحيح تماماً؛ ولكن دوران يفهمني.

ما كنت أفهمه هو أن لويس ماريا يقطع الحديث في الموضوع بلطف بائخ تقريباً؛ ولكنني لم أشكره ولو بأدنى الحدود على ذلك.

وفي تلك الأثناء كنت أصوب عيني إلى ماريا إلفيرا كلما

استطعت ذلك دون أن ألفت الأنظار. أخيراً! هاهي ذي أمامي سليمة معافاة. لقد أحببتُ ظلاً، أو بكلمة أدق، أحببتُ عينين وثلاثين سنتمتراً من ذراع. ذلك أن ما تبقى منها كان مجرد كتلة بيضاء متطاولة. إنها تنظر إلي مثلما تنظر إلى صديق من أصدقاء البيت لابد من التطلع إلى عينيه لثانية حين يروي شيئاً أو يعلق بجملة باسمة. ولكن لا شيء أكثر من ذلك. ولا أي أثر من الماضي. لقد كنت بالنسبة إليها شخصاً ـ وليس شخصاً، بل كائناً ـ مجهولاً تماماً. وفكروا الآن في الظرافة التي سأتذكر فيها أن هاتين العينين غير المباليتين قد قالتا وهما على بعد أقل من ثمانية أصابع عن عيني:

ـ وعندما أشفى... هل ستبقى تحبني؟

علام البحث عن أنوار، عن نيران بلهاء لسعادة ميتة، مختومة بالنار في صندوق منمّل بحمى دماغية! يجب نسيانها... هذا هو ما كنت أرغب فيه، ولكنه مالا أستطيع عمله.

فيما بعد، بينما نحن في الردهة، وجدت طريقة للانفراد مع لويس ماريا، وقد أوقفته بيني وبين ماريا إلفيرا، فاستطعت أن أنظر إليها هكذا دون خوف، بحجة أن نظري يسرح بصورة طبيعية فيما وراء محدثي. ويا لجسدها الاستثنائي الذي كان يضج برغبة حية، من قمة شعرها وحتى كعب حذائها، وحين اجتازت الردهة لتذهب

إلى الداخل كان قلبي يتجرجر كورقة مع كل ارتطام لتنورتها بحذائها اللامع.

رجعتْ، وابتسمتْ، ومرت بقربي وهي تكاد أن تلمسني، وابتسمت لي ابتسامة اضطرارية، فقد كنت في طريقها، بينما كنت ما أزال أحلم، مثل أحمق، بتوقفها فجأة إلى جانبي، وأنا أضع يدي الاثنتين، وليس يداً واحدة على صدغي.

حسن، والآن بعد أن رأيتني واقفة، هل مازلت تحبني؟

ياه! إنني ميتٌ، ودعتهم وأنا ميت تماماً، وضغطتُ للحظة تلك اليد الباردة اللطيفة والسريعة.

***

هناك على الرغم من كل شيء أمر مؤكد، هو التالي: ربما أن ماريا إلفيرا لا تتذكر ما أحسست به في أيام حمّاها؛ وهذا ما أتقبله. ولكنها عرفت جيداً كل ما حدث، من خلال ما روي لها فيما بعد. ولهذا فإنه من المستحيل أن لا تكون لي في نظرها أي أهمية. بالنسبة للجمال - وليسامحني الله - يمكنها أن تتجاهلني كما تشاء. أما بشأن الاهتمام، فلا يمكن أن لا تكون هناك أي أهمية للرجل الذي حلمتْ به طوال عشرين ليلة متتالية. ولهذا فإن عدم مبالاتها التامة بشأني هي أمر غير عقلاني. أي فوائد، وأي احتمالات سعادة نائية يمكن أن يوفرها لي التأكد من ذلك؟ لست أرى أي فائدة. إن

ماريا إلفيرا تحتاط من إمكانية أن أقدم على مغازلتها بسبب ذلك؛ وهذا هو كل شيء.

وهي ليست محقة في ذلك. صحيح أنها تعجبني إلى حد اليأس. ولكن أن يصل بي الأمر إلى حد الطلب منها أن تسدد سند الحب الذي وقّعته وهي تحت تأثير التهاب السحايا، فيا للشياطين! هذا غير ممكن.

***

الساعة التاسعة صباحاً. وهي ليست الساعة الوقورة تماما للنوم، ولكن هكذا هو الحال معي. فمن حفلة الرقص في بيت رودريغيث بينيا إلى باليرمو. ثم إلى البار. وكل ذلك وأنا وحيد تماماً. والآن إلى السرير.

ولكن النوم لن يأتيني قبل أن أنهي علبة السجائر. وها هو ذا السبب: لقد رقصت ليلاً مع ماريا إلفيرا. وبعد الرقص تبادلنا هذا الحديث.

ـ هذه النقط الصغيرة في الحدقة لم تذهب بعد. ـ قالت لي ذلك ونحن نقف أحدنا قبالة الآخر عند طاولة البوفيه. ثم أضافت:
ـ لست أدري ماذا تكون... قبل مرضي لم تكن موجودة.

كانت جارتنا على المائدة بالتحديد هي التي لفتت نظرها إلى هذا التفصيل. ولكن ذلك لم يزد عينيها إلا بريقاً. وما كدت أبدأ

بالرد عليها حتى انتبهت إلى سقوطي؛ ولكن الوقت كان قد فات. فقد قلت لها وأنا أتفحص عينيها:

ـ أجل، أذكر أنها لم تكن موجودة في السابق...

ونظرتُ إلى الجهة الأخرى. ولكن ماريا إلفيرا انفجرت بالضحك.

ـ صحيح؛ أنت يجب أن تعرف ذلك أفضل من أي شخص آخر.

أه! أي إحساس بصفيحة حجرية هائلة تنزل على صدري! أمن المعقول التحدث عن ذلك أخيراً!

فأجبت:

ـ هذا ما أظنه. لست أدري إذا كنت أعرف ذلك أفضل من الجميع... ولكن؛ في الوقت الذي تعنينه، أجل، كنت أعرفه أفضل من الجميع بكل تأكيد!

توقفت من جديد؛ وكان صوتي قد بدأ ينخفض كثيراً.

ـ آه، أجل! وابتسمت إلفيرا وهي تنصرف بعينيها وقد اكتست بالجدية، ثم رفعت نظرها نحو الأزواج الذين كانوا يمرون بجوارنا.

مضت لحظة أظنها كانت بالنسبة إليها لحظة نسيان كامل لما تحدثنا به، ولكنها كانت لحظة كآبة قاتمة بالنسبة إلي. ودون أن تخفض بصرها، كما لو أنها تهتم بالوجوه التي تمر بنا بتوالي شريط فيلم، أضافت بعد هنيهة:

ـ حين كنتَ حبي كما يبدو.

فقلت لها:

ـ هذا هو التعبير الدقيق بالضبط. حبك، **كما يبدو.**

حينئذ نظرت إلي مباشرة.

ـ لا...

وسكتتْ.

ـ لا... ماذا؟ أكملي.

ـ ولماذا؟ إنها مجرد تفاهة..

ـ لا يهم؛ أكملي.

فراحت تضحك:

ـ ولماذا؟ أخيراً... ألا يكون في اعتقادك أنه لم يكن **كما يبدو؟**

وأجبتها:

ـ هذه إهانة مجانية. فقد كنت أول من فهم ذلك بدقة، حين كنتُ حبك ...**كما يبدو.**

ـ هيا!... دمدمت هي بذلك. ولكن طغيان الجنون سحبني بدوري وراء تلك الـ «هيا» الساخرة، لأوجه إليها سؤالاً ما كان علي أن أوجهه مطلقاً. فقد انحنيت وقلت لها:

ـ أخبريني يا ماريا إلفيرا، أنت لا تتذكرين شيئاً، أليس كذلك.. ولا أي شيء من تلك القصة المضحكة؟

فنظرت إلى بجدية، بل وبتكبر إذا شئت، ولكن باهتمام في الوقت نفسه، مثلما نفعل حين نستعد لسماع أمور لا تزعجنا على الرغم من كل شيء. وقالت:

ـ أي قصة تعني؟

فجعلتها ترى بوضوح كاف حين قلت لها:

ـ تلك القصة، حين كنت أعيش بجوارك...

ـ لا أذكر أي شيء... ولا أي شيء على الإطلاق.

ـ فلنتأمل؛ انظري إلي لحظة...

فأطلقتْ قهقهة:

ـ لا أذكر، حتى ولو نظرت إليك!...

ـ لا، ليس هذا هو ما أعنيه!... فقد نظرتِ إلى كثيراً من قبل وأنا أعرف ذلك... ولكنني أردت أن أسألك: ألا تتذكرين أنك قد قلت لي شيئاً... كلمتين أو ثلاث كلمات فقط... في الليلة الأخيرة لإصابتك بالحمى؟

قطبت ماريا إلفيرا حاجبيها لوقت طويل، ثم رفعتهما بعد ذلك أعلى من وضعهما الطبيعي. ونظرت إلي باهتمام وهي تهز رأسها:

ـ لا، لا أتذكر...

ـ آه! قلتُ ذلك وصمتُ.

مضت هنيهة. ورأيت بطرف عيني أنها مازالت تنظر إلي.

ـ ماذا؟... همستْ هي.

وأجبتها:

ـ ماذا... ماذا؟

ـ ماذا قلت لك؟

ـ أنا أيضاً لم أعد أذكر...

ـ بلى، أنت تذكر... ماذا قلتُ لك؟

ـ لا أعرف، أؤكد لك...

ـ بلى، أنت تعرف... ماذا قلت لك؟

دنوت منها ثانية:

ـ انظري! إذا كنت لا تذكرين شيئاً على الإطلاق، لأن كل ذلك كان هذيانات حمى، فما الذي يهمك إن كنتِ قد قلت شيئاً أم لم تقولي في هذيانك؟

كانت الضربة جدية. ولكن ماريا إلفيرا لم تفكر بالرد عليها، قانعة بالنظر إلي لحظة أخرى ثم صرف نظرها مع هزة خفيفة من كتفيها.

قالت لي بجفاء:

ـ هيا. أريد أن أرقص هذا الفالس.

فنهضتُ:

ـ معك حق. فحلم الفالس الذي رقصناه معاً ليس ممتعاً على الإطلاق.

لم ترد علي. وبينما نحن نتقدم نحو الصالة، بدت وكأنها تبحث بعينيها عن أحد رفاقها المعتادين في رقص الفالس.

ـ أي حلم فالس مستنكر هذا الذي تعنيه؟ قالت لي ذلك فجأة، دون أن تتوقف عن ذرع الصالون بنظرها.

فهززت كتفي بدوري:

ـ إنه فالس هذياني... ليست له أي علاقة بهذا.

ظننت أننا لن نتبادل مزيداً من الحديث في تلك الليلة. ولكن، مع أن إلفيرا لم ترد بكلمة واحدة، فقد بدا أنها لم تجد رفيق الرقص المثالي الذي تبحث عنه. ولهذا توقفت وقالت لي بابتسامة اضطرارية ـ تلك الابتسامة الاضطرارية التي خيمت على كل تلك القصة:

ـ إذا أنت أردت إذن، فارقص هذا الفالس مع حبك...

ـ ...**كما يبدو**. ولا أضيف أي كلمة أخرى. ـ أجبتها بذلك وأنا أحيط خصرها بيدي.

***

مر شهر آخر. أفكر أن الأم وانخيليكا ولويس ماريا يمثلون بالنسبة إلي سراً شاعرياً! فالأم **هي** دون شك أكثر شخص تداعبه ماريا إلفيرا وتقبله بحميمية. وأنخيليكا رأتها تتعرى. ولويس ماريا

من جهته، يسمح لنفسه بالمرور بيده على ذقنها حين يدخل وتكون هي جالسة ومولية ظهرها. ثلاثة أشخاص سعداء جداً كما يبدو، وغير قادرين على تقويم السعادة التي تكتنفهم.

أما أنا فأقضي حياتي في رفع السجائر إلى فمي مثل من يحرق أزهار أقحوان: تحبني؟ لا تحبني؟

بعد حفلة الرقص في بيت آل بينيا التقيت بها عدة مرات ـ في بيتها بالطبع، كل يوم أربعاء.

إنها تحتفظ بدائرة الأصدقاء نفسها، تجامل الجميع بضحكتها، وتغازلهم بإعجاب كلما طرحوا ذلك. هذا عندما تكون مع الآخرين. أما عندما تكون معي فلا ترفع بصرها عنهم.

هل هذا معقول؟ لا، ليس معقولاً. ولهذا فإنني مصاب منذ شهر بالتهاب حاد في الحلق، بسبب ملء حنجرتي بالدخان.

ومع ذلك، فقد حصلت في الليلة الماضية على لحظة هدنة. كان يوم الأربعاء. وكان ايستاراين يتحدث معي، وجاءت نظرة قصيرة من ماريا إلفيرا وجهتها نحونا من فوق أكتاف أربعة المغازلين الذين يحيطون بها، ففرضت صورتها البديعة على محادثتنا. تكلمنا عنها، وذكرنا القصة القديمة بصورة عابرة. وبعد لحظة توقفت ماريا إلفيرا أمامنا.

ـ عم تتحدثان؟

فرد الطبيب:

ـ عن أشياء كثيرة؛ وعنك خصوصاً.

ـ آه، هذا ما تخيلته... ـ وجذبت نحوها كرسياً رومانياً، وجلست مقاطعة ساقيها، وجذعها ممدود إلى الأمام ووجهها مستند إلى يدها:

ـ تابعا؛ إنني مصغية.

فقال ايستاراين:

ـ كنت أقول لدوران إن الحالات المماثلة لما أصابك في مرضك نادرة الحدوث، ولكن هناك بعضها. ثمة كاتب إنكليزي، لست أذكر اسمه، يذكر حالة من هذا النوع. ولكنها كانت حالة أكثر سعادة من حالتك.

ـ أكثر سعادة؟ ولماذا؟

ـ لأنه لم تكن هناك حمى في تلك الحالة، وقد وقع الشخصان المعنيان كلاهما في الحب في الأحلام. أما في حالتك بالمقابل، فأنت وحدك التي أحببت...

هل قلت من قبل إن سلوك ايستاراين تجاهي كان يبدو لي ملتوٍ وماكر على الدوام؟ إذا لم أكن قد قلت ذلك فقد أحسست في تلك اللحظة برغبة صاعقة في أن أجعله يشعر به، ليس بالنظر وحسب.

ومع ذلك، لابد أن شيئاً من ذلك كان قد بدا في عيني، لأنه نهض ضاحكاً وقال:

ـ سأترككما لتصفيا حساباتكما.

وتمتمتُ عندما ابتعد:

ـ حشرة ملعونة!

ـ لماذا؟ ماذا فعل لك؟

فهتفتُ:

ـ أخبريني يا إلفيرا. هل عرض عليك الحب يوماً؟

ـ من، ايستاراين؟

ـ أجل، هو.

فنظرت إلى مترددة في أول الأمر. ثم نظرت بجدية إلى عيني مباشرة وأجابت:

ـ نعم.

فتلعثمتُ وقد سيطرت علي المرارة تماماً:

ـ آه، لقد كنت أتوقع ذلك!... إنه محظوظ على الأقل.

فسألتني:

ـ لماذا؟

هزرت كتفي بعنف دون أن أرد عليها، ونظرت جانباً. فلاحقت نظراتي، ومرت لحظة على ذلك.

ـ لماذا؟ ألحت بذلك العناد الثقيل والساهي الذي يميز النساء عندما يجدن أنفسهن على هواهن تماماً مع رجل. وكانت الآن، وقد بقيت كذلك في اللحظات القصيرة التالية، تقف وهي تسند

إحدى ركبتيها على الكرسي. وكانت تمضغ ورقة ـ لم أعرف مطلقاً من أين جاءت بها ـ وتنظر إلى رافعة وخافضة حاجبيها بحركة خفيفة.

وأجبتها أخيرا:

ـ لماذا؟ لأن الحظ حالفه على الأقل في ألا يكون ألعوبة مضحكة إلى جانب سرير ـ واستطعت أن أتكلم بجدية، دون أن أرى صعود وهبوط حاجبيها وكأنها لا تفهم ما أقوله... هل تفهمينني الآن؟...

نظرتْ ماريا إلفيرا إلي لحظة، ثم هزت رأسها سلباً، وورقتها ما تزال بين شفتيها.

ـ هل ما أقوله صحيح أم لا؟ قلتُ بإصرار، ولكن قلبي لم يعد منفلتاً بجنون.

فعادت تهز رأسها من جديد:

ـ لا، ليس صحيحاً...

وعندئذ نادتها أختها أنخيليكا من بعيد:

ـ ماريا إلفيرا!

الجميع يعرفون أن صوت الأخوة يأتي في غير وقته المناسب دائماً. ولكن أي صوت أخوي لم يكن له وقع طوفان من الثلج والسمك البارد وبعيداً عن موعده المناسب مثلما كان في تلك المرة.

رمت ماريا إلفيرا الورقة وأنزلت ركبتها عن الكرسي. وقالت وهي تضحك تلك الضحكة التي عرفتها منها وهي تواجه أحد مغازليها:

ـ سأذهب.

فقلت لها:

ـ لحظة واحدة!

وردت وهي تبتعد وتحرك يدها رافضة:

ـ ولا أي لحظة أخرى.

ماذا بقي لي لأفعله؟ لا شيء، اللهم إلا ابتلاع الورقة الصغيرة المبللة، وإغراق فمي في الفجوة التي خلفتها ركبتها على الكرسي، وضرب الكرسي بالجدار. ثم ضرب نفسي بالذات بمرآة، لأنني أحمق.

سخطي الهائل من نفسي يجعلني أتألم بصورة خاصة. أهي الهواجس الرجولية! أهي سيكولوجية الرجل المرتبك خجلاً! أهو التغنج الأول المتمثل في أثر ركبتها الذي مازال هناك يسخر من كل هذا بطزاجة فريدة!

لم أعد أستطيع تحمل المزيد. إنني أحبها بجنون، ولست أدري ـ وهذا هو أكثر ما يزيد مرارتي ـ إذا كانت هي تحبني حقاً أم لا. أضف إلى ذلك أنني أحلم، أحلم بكثرة وتكون أحلامي على هذا النحو: أمضي متأبطاً ذراعها في صالون، هي بيضاء بالكامل، وأنا

مثل حزمة سوداء بجانبها. وليس هناك في الصالون إلا أشخاص متقدمون في السن، جميعهم يجلسون وينظرون إلينا ونحن نمر. والصالون مع ذلك هو صالة رقص. الجالسون يقولون عنا: **التهاب السحايا وظلها**. استيقظ، ثم أعود لأحلم من جديد: صالون الرقص نفسه يرتاده الموتى اليوميون في جائحة. ثوب إلفيرا الأبيض هو كفنها، وأنا مازلت الظل نفسه الذي كنته في السابق، ولكن هناك في رأسي عذاب الآن. فنحن نبقى دائماً: **التهاب السحايا وظلها**.

ما الذي أستطيع عمله بأحلام من هذا النوع؟ لم أعد أستطيع التحمل. سأذهب إلى أوروبا، إلى أمريكا الشمالية، إلى أي مكان يمكنني فيه أن أنساها.

ولماذا أبقى؟ ألكي أبدأ القصة المعهودة، وأحترق وحيداً مثل مهرج، أم لكي نتجافى في كل مرة نجد فيها نفسينا وحيدين؟ آه، لا! فلننه هذا الوضع. لست أدرى ما هو الخير الذي سيحققه لمخططاتي هذا الغياب العاطفي (أجل، عاطفي! حتى وإن لم تشأ ذلك)، ولكن بقائي سيكون مضحكاً وأحمق، وليس هناك ما يستدعي أن أوفر المزيد من التسلية لماريا إلفيرا.

....

يمكنني أن أكتب هنا أشياء مختلفة عما كتبته حتى الآن،

ولكنني أفضل أن أروي ببساطة ما جرى في اليوم الأخير الذي رأيت فيه ماريا إلفيرا.

بسبب نوبة صلف، أو تحدٍ لنفسي، أو من يدري لأي أمل مأتمي انتحاري، ذهبت في مساء اليوم السابق لسفري كي أودع آل فونيس. وكانت بطاقات السفر قد أصبحت منذ عشرة أيام في جيبي.

كانت ماريا إلفيرا مريضة ـ مسألة حنجرة أو صداع ـ ولكن كان بالإمكان رؤيتها. وقد انتقلتُ إلى الصالة الداخلية لأودعها. وحين رأتني فوجئت قليلاً، ولكنها وجدت مع ذلك بعض الوقت لتلقي نظرة سريعة إلى المرآة. كان وجهها كئيباً، وشفتاها شاحبتين، وعيناها غارقتين في دائرتين زرقاوين. ولكنها كانت هي نفسها، بل وكانت أكثر جمالاً بالنسبة إلي لأني كنت سأفقدها.

قلت لها ببساطة إنني ذاهب، وإنني أتمنى لها سعادة كبيرة.

لم تفهمني في أول الأمر.

ـ ستذهب؟ إلى أين؟

ـ إلى أمريكا الشمالية... لقد أخبرتك للتو.

فدمدمتْ:

ـ آه! وأظهرت بوضوح شديد تقلص شفتيها. ولكنها نظرت إلي على الفور بقلق وسألتني: ـ هل أنت مريض؟

ـ لا!... ليس هذا هو السبب... إنني على ما يرام.

فدمدمت من جديد:

- آه! ونظرت إلى الخارج عبر الزجاج وهي تفتح عينيها جيداً، مثلما يفعل المرء حين يفقد أفكاره.

كان المطر يهطل في الخارج، ولم تكن الصالة الداخلية مضاءة جيداً.

التفتت إلي من جديد وسألتني:

- ولماذا ستذهب؟

فابتسمتُ:

- همم! ستكون قصة طويلة، طويلة جداً... باختصار، سأذهب.

حدقت ماريا إلفيرا بي بقوة أكبر وتحولت تعابير وجهها القلقة والمهتمة إلى القتامة. فلننته، قلت ذلك لنفسي وتقدمت منها:

- حسن يا ماريا إلفيرا...

مدت إلي ببطء يدها، يد باردة ورطبة من الصداع. وقالت لي:

- قبل أن تذهب... ألا تريد أن تخبرني بسبب ذهابك؟

كانت نبرة صوتها قد انخفضت. وبدأ قلبي ينبض بجنون، ولكنني في ومضة رأيتها أمامي مثلما كانت في تلك الليلة، تضحك مبتعدة وهي ترفض بيدها: «لا، لقد اكتفيت»... آه، لن أقول شيئاً، فأنا أيضاً قد اكتفيت! يكفيني كل ذلك الذي حدث!

قلت لها بوضوح تام:

ـ سأذهب لأنني لم أعد أحتمل الألم والسخرية والخجل من نفسي! هل قلتُ كل شيء؟

كانت يدها ما تزال في يدي. فسحبتها، ودارت ببطء، وسحبت النوتة الموسيقية عن المسند لتضعها فوق البيانو بكل بطء ودقة، ثم نظرت إلي من جديد بابتسامة مغتصبة ومتألمة:

ـ وإذا أنا... طلبت منك ألا تذهب؟

فهتفتُ:

ـ ولكن، بحق الرب المبارك... ألا ترين أنك تقتلينني بهذه الأشياء! لقد سئمت التألم ومواجهتك لي ببؤسي! ما الذي نكسبه، ما الذي تكسبينه أنت من هذه الأشياء؟ ألا يكفيك؟ ـ ثم أضفت وأنا أتقدم نحوها: ـ هل تعرفين ما الذي قلته لي في تلك الليلة الأخيرة من مرضك؟ أتريدين أن أخبرك؟ أتريدين؟

وقفت جامدة وقد تحولت كلها إلى عينين:

ـ أجل، أخبرني...

ـ حسن! قلت لي... ملعونة تلك الليلة التي سمعت فيها ذلك، لقد قلتِ لي بكل وضوح مايلي: **وعندما لا تبقى ثمة هذيانات، هل ستبقى تحبني؟** كنت ما تزالين تهذين، أعرف ذلك... ولكن، ماذا تريدينني أن أفعل الآن؟ أأبقى هنا إلى جانبك وأنا أنزف حياً من طريقتك في الحياة، لمجرد أني أحبك مثل مجنون؟... هذا واضح

جداً أيضاً، أليس كذلك؟ آه، وأؤكد لك أنها ليست حياة هذه التي أعيشها! لا، ليست حياة!

أسندت جبهتي إلى الزجاج منهوكاً وأنا أشعر أن حياتي بعد ما قلته ستنهار إلى أبد الآبدين.

ولكن كان لابد من إكمال ذلك، فالتفتُ إليها: كانت بجانبي، وفي عينيها ـ كما في بريق سعادة هذه المرة ـ رأيت في عينيها بريق، دوار، ضوء سعادة ندية كنت أظنها ميتة فيها.

فهتفتُ، بل صرختُ على ما أظن:

ـ ماريا إلفيرا! ياحبي العزيز! ياروحي المعبودة!

وبدموع صامتة لعاصفة منتهية، مهزومة، مستسلمة، سعيدة، وجدتْ هي أخيراً على صدري موقعاً مريحاً لرأسها.

***

ولا شيء سوى ذلك. هل هناك ما هو أسهل من كل هذا؟ لقد تألمتُ، وهذا محتمل جداً، وبكيت، وصرخت من الألم؛ ويجب أن أصدق ذلك لأنني قد كتبته. ولكن كم هو بعيد بعداً شيطانياً كل ذلك! وهو أكثر بعداً الآن ـ وهذا هو أجمل ما في قصتنا ـ لأنها معي هنا، بجانبي، تقرأ ورأسها فوق المقلمة ما أكتبه. لقد احتجّتْ، كما هو واضح جيداً، على كثير من ملاحظاتي؛ ولكنها تنازلت عن احتجاجاتها كزوجة طيبة على شرف الفن الأدبي الذي انغمسنا فيهِ بكل نداوة. وما سوى ذلك، فإنها تعتقد مثلي بأن

الانطباع العام للقصة التي أعدتُ بناءها على مراحل، هو انعكاس صائب إلى حد بعيد لما حدث، ولما شعرنا به وعانيناه. وهذا ليس بالأمر السيئ إذا كان من يقوم به مهندس مثلي.

في هذه اللحظة تقاطعني ماريا إلفيرا لتقول لي إن سطوري الأخيرة غير صحيحة: فقصتي ليست جيدة وحسب، بل هي جيدة جداً. وكبرهان لا يمكن دحضه تلقي بذراعيها حول عنقي وتنظر إلي، لست أدري إذا كانت المسافة تزيد كثيراً عن خمسة سنتمترات.

إنها تتمتم، أو «تهدل» بكلمة أدق:

ـ أليس صحيحاً؟

فأسألها:

ـ هل يمكنني أن أضع كلمة «تهدل»؟

ـ أجل، وهذه، وهذه! ـ وتقبلني.

ما الذي يمكنني أن أضيفه بعد هذا؟

القرد الذي قَتَلَ

I

بدأت المغامرة الرهيبة في حديقة الحيوان، في صباح يوم كان فيه رجلنا يتنقل ضجراً من قفص إلى آخر. وقادته قدماه إلى حيث النيص، شخصية حديقة الحيوان الذي لا يقل تواضعه عن أشواكه، فهو لا يظهر تقريباً خارج جحره. ابتعد غيلليرمو بوكس من هناك ليتوقف أمام الأفاعي المتناومة، ثم داس غصناً جافاً هنا وهو يتطلع ساه إلى هناك، وتوقف أمام قفص القرود الكبيرة، وبالتحديد أمام القرد الذي يُعتقد خطأ أنه من فصيلة الجِبَّون الرمادي، والذي يشاركه القفص قردان صغيران من جبل طارق، يدعيان «موناس» في استفزاز خطير لذكورة هذا الجنس من الحيوانات.

قرد الجبّون ذاك الذي كان يجلس مقاطعاً ساقيه على حافة القفص، جدياً وضجراً وفلسفياً، مات سنة ١٩٠٧، وعزي سبب موته إلى ذات الرئة، مثل سايان. وكان يشغل القفص الغربي في ميدان القرود، وقد كان القرد الوحيد في حديقة الحيوان الذي له

قيمة ما، فقد عُلقت على قفصه فقط لوحة كُتب عليها: «ثمن هذا الحيوان ٦٠٠ بيزو».

حسن. هذا القرد لم يكن موجوداً في قفصه خلال الأيام العشرين التي دامها مرضه المزعوم، وذلك لسبب بسيط هو أنه سُرق من الحديقة. أما من مات في القفص نفسه بطعنة وحشية في العنق، بعد فقدان كل شيء آدمي باستثناء روحه، فهو غيلليرمو بوكس.

وقد رافق ذلك كله ملابسات غريبة جرت ما بين بوكس والجبون، بدت حدثاً شديد الغرابة في أول الأمر، ثم تحولت بعد عملية السرقة إلى شيء آخر.

لقد توقف رجلنا إذن أمام قفص الجبون. وكان القرد يقاطع ساقيه كعادته، ويتمسك بقضبان القفص متطلعاً إلى الخارج بنظرةٍ، إذا لم تكن نظرة تأمل فهي نظرة سأم على الأقل؛ وحيث أن السأم يأتي بعد تأمل طويل، فإن القرد كان يتأمل فعلاً.

وكان هذا هو ما افترضه رجلنا. وبما أنه كان منهوك القوى أيضاً من المسير، فقد دار حول نفسه ليجلس. وفي هذه اللحظة بالذات سمع صوتاً يقول:

ـ النهر يتعاظم!

فأحس بوكس على الفور باضطراب غريب، وكأن هذه العبارة العشوائية هي رد على أحد همومه الحادة، إنما الغامضة والبعيدة

التي لا تكاد تومض في ذهنه. توقف بوكس. وبالرغم من أنه كان يدرك أنه وحيد، إلا أنه أدار رأسه، واعترته قشعريرة من رأسه حتى أخمص قدميه؛ إذ لم يكن هناك أحد. لا أحد سوى الجبون الذي مازال ينظر بغموض إلى الفضاء.

تعرف رجلنا عندئذ على الجرس الخاص للصوت. وبقي يرتعش وهو يراقب القرد بتمعن. وأخيراً بدّل مكانه دون تسرع، ووقف قبالة عيني رباعي الأيدي معترضاً نظرة القرد بعينيه. ولم يرمش أي منهما خلال دقيقة. كان بوكس يركز في نظرته كل ما لدى الإنسان من إرادة وخبرة وقوة تنبئية؛ أما القرد فكان يرد إليه نظرته النفاذة دون أن تكون لديه نوايا الآخر الفلسفية.

انتصب بوكس متشنجاً، وتراجع القهقري دون أن يرفع بصره عن الجبون، وترك جسده يهوي على المقعد. كان رأسه يهتز بإعصار من الأفكار: فهذا القرد، الجبون، هذا الشيطان قد تكلم؛ لم يكن يراوده أي شك في ذلك. ولكن لماذا قال: «**النهر يتعاظم**»؟ ما الذي عناه بذلك...؟

وكان عليه أن يقطع أفكاره؛ فقد ظهرت في أقصى القفص قردة، وبعد أن تفحصت المشهد بنظرة سريعة، بدأت للأسف الشديد، كعادتها كل يوم، بالتلهي بالقمل في جسم الجبون الذي أصدر صوتاً وهو يحتفظ بعدم مبالاته:

ـ ايو...ايو... ايو...

أو هذا ما فهمه بوكس على الأقل. وبقفزة واحدة حطت القردة على القضبان التي في وسط القفص، وصوبت عينيها إلى بوكس، وتأملته طويلاً وهي ترفع حاجبيها دون توقف. ثم عادت بعد ذلك إلى جانب الجبون، والتصقت به وبدأ حينئذ أكثر حوار متعجل سمعه بوكس في حياته. كانت القردة تومئ كثيراً وهي تلتفت في كل لحظة نحو بوكس؛ وكان الجبون لا ينفك ينظر إلى الفضاء، ويجيب بكلمات قليلة.

كل هذا لا بأس به: ولكن تلك الجملة الموجهة إليه **هو**، ماذا كانت؟ ولماذا أحس بأن...؟

وسمع فجأة:

ـ افتحوا الباب.

قفز بوكس على المقعد، وأحس كما في المرة الأولى بغم زخم وناءٍ بصورة مذهلة كذلك. بقي متشنجاً يحاول أن يتذكر بيأس. فكانت تبرز من أعماق ذاكرته، من أقصى ثقب فيها، عبارة: لا أعرف، لترد على تساؤله المغموم. كان يراوده إحساس بأنه عليه أن يفعل شيئاً، شيئاً مستعجلاً يثقل عليه. ولكن ما هو؟

تلفت في كل الاتجاهات: الأقفاص، الجسر، حديقة الحيوان، بوينس ايرس... ما علاقته بعبارتي **نهر يتعاظم** و**افتحوا الباب**؟ ولكنه يعرف رغم ذلك، يعرف جيداً أنه لابد له من أن يفعل شيئاً...

ترك نفسه يهوي على المقعد ثانية، وكان يسند رأسه بين كفيه.

ثم سمع مرة أخرى:

ـ ايبانغو الأسد!

ـ أجل، أجل، ولكن أين؟ ـ صرخ بوكس بذلك وهو يقفز فاقداً السيطرة على نفسه. وبقي متيقظاً من الرعب مدة خمس دقائق، مستعداً للانطلاق في الجري. وعندئذ فقط انتبه إلى ما فعله: لقد رد على القرد؛ واهتزت حياته كلها حتى أعمق أعماقها لما قاله القرد. وقد أدرك الآن كذلك أن خوفه لم يكن من أسود الحديقة؛ بل من أسود **أخرى** لأن النهر **يتعاظم**...

إن ما جرى لبوكس، كما هو واضح، كان كافياً لبعث الاضطراب في أشد الرؤوس تماسكاً. والأدهى من ذلك أنه لم يكن يبدو على القرود الأخرى القريبة أنها سمعت ما قاله الجبون؛ وإنما هو وحده الذي سمعه وفهمه... عاد إلى الجلوس، وبقي ثابتاً في مكانه طوال أكثر من ساعتين، ينظر بإصرار إلى الجبون. ولكن الحيوان بقي مقاطعاً ساقيه وساهم النظرات، ولم ينطق بأي شيء آخر.

وأخيراً انصرف بوكس، ابتعد خطوة خطوة وهو موقن من حقيقة فاقعة: هناك قرد.. قرد ما في حديقة الحيوان... قرد اشترته الحديقة من مكان ما، يراه الجمهور كل يوم دون مبالاة لأنه قرد أبله مثل غيره من القرود. ولكن لهذا القرد بالذات تأثير رهيب عليه هو وحده.

ومن أجل التوصل إلى توضيح هذا الأمر الغريب، طرح بوكس المسألة على النحو التالي:

أولاً، هنالك قرد يتكلم.

ثانياً، إنه يتكلم إليه فقط. (فهو لم يسمع مطلقاً أحداً يقول إنه يوجد في حديقتنا قرد ناطق).

ثالثاً، إنه ينطق بعبارات بلا معنى.

رابعاً، هذه العبارات الخالية من المعنى لها بالنسبة إليه مغزى عميق لا يستطيع التوصل إلى تبينه بوضوح، ولكنها تهز أعمق أعماق ذاكرته...

ذاكرته! هذه هي النقطة التي أصابها الجرح مباشرة! أجل، لقد فعل شيئاً من قبل... منذ زمن سحيق، يتفق تماماً مع عبارة القرد. **النهر يتعاظم...افتحوا الباب... توقف بوكس وحاول الغوص في هوة ذاكرته، حاول أن يتذكر ما يعنيه ذلك...**

لا، إنه لا يجد أي شيء الآن. لقد رأى أنهاراً كثيرة تفيض وأبواباً كثيرة تُفتح؛ ولكنها ليست المقصودة. وعندما عاود المسير وجد أنه قد توقف أمام قفص الأسود. ايبانغو الأسد!

ولكنها لم تكن كذلك الأسود التي أفزعته. وعندئذ انتبه إلى ما هو أغرب من كل شيء: فهو يعرف ما الذي تعنيه كلمة **ايبانغو**، لأنه رد عليها في الحال: «أجل، أجل؛ ولكن كيف؟»

يجب أن نتخيل الآن ما الذي يعنيه ـ بالنسبة لإنسان عاقل ـ هذا

السر الغامض الصغير: فهم لغة لا يعرفها، ينطق بها قرد. والشعور بالاضطراب والبلبلة لما تعنيه تلك العبارة.

ولكن إذا كان بوكس، كما أسلفنا، هو شخص عاقل، فإن هناك أشياء أكبر بكثير من طاقة العقل. وحالة بوكس الذي أصبح خاضعاً لرباعي الأيدي لم تكن مشجعة. ونلح على أن ذلك كان أكثر ما صدم رجلنا في هذه المغامرة. فلو أنه كانت للقرد مزايا خاصة، أو كان من جنس نادر، ربما كان سيجد مبرراً للتعلق به؛ ولكن أن يجد حياته مرتبطة بقرد جبون عادي، يداعبه عمال ومروضو حديقة الحيوان، لأنه قرد مثل كل القرود الأخرى، فهو أمر ينطوي على إهانة عميقة.

وهكذا قام بوكس بأشياء ما كان ليصدق أنه قادر على الإقدام عليها. فبعد أربعة أيام من القراءة المعمقة لكل ما يمكن أن يكون قد قاله بريهم[1] حول القردة، وعدد مماثل من الليالي المترعة بالأحلام عن القرود والقرود والقرود، فقد بوكس آخر ما تبقى لديه من الرصانة في هذه القصة، وذهب في صباح اليوم الخامس لمقابلة صديق يواظب على التردد على المحافل الروحانية.

ـ أريد منك بطاقة توصية إلى دونيا ماريا.

استغرب الصديق الطلب، لأن بوكس كان يبدي ارتيابه دائماً

---

(١) الإشارة هنا إلى ألفريد أدموند بريهم (١٨٢٩ ـ ١٨٨٤)، عالم طبيعي ألماني مشهور بمؤلفه «**حياة الحيوان**» الذي بدأ بنشره سنة ١٨٦٤.

بهذه الأمور، فتأمله بتمعن خشية أن يكون في طلبه سخرية. ولكنه اطمأن في الحال، لأن تعابير وجه شخص أمضى الليل كله يحلم بالقردة لا يمكن أن تكون عادية.

قال الصديق:

ـ ومتى تريدها؟

ـ حالاً.

ـ إذا لم يكن الأمر مستعجلاً فمن الأفضل الذهاب يوم الأحد؛ لأن انسياب...

ـ لا، لا، يجب أن أذهب إليها فوراً. هل يمكنك أن تعطيني بطاقة توصية الآن حالاً؟

كتب له الصديق سطرين، وبعد ساعة من ذلك كان بوكس يعرض على المُفسرة الروحانية هذه المسألة:

«ما هي العلاقة بين حياة غيلليرمو بوكس **الماضية** وعبارات: **النهر يتعاظم، افتحوا الباب، إيبانغو الأسد؟**»

وبعد عشر دقائق جاءه جواب الروحانية. فالجملة الأولى تعني التطور السريع الذي حققه صاحب الشأن في شبابه (فالنهر يعني الحياة)؛ والجملة الثانية تعني التعليم الجيد الذي تلقاه بوكس نفسه (الباب هو بوابة العلم) أما الجملة الثالثة الأكثر غموضا، فتعني أن الأرواح ذات السلطات القوية (الأسد: القوة)، تسهر دائماً على حماية بوكس.

لقد تنور بوكس جيداً فيما يخص النوايا الطيبة التي يكنها له الروحانيون، ولكنه وجد نفسه في ظلمة أشد قتامة من السابق بشأن ذلك السر الغامض. لقد دفع لها رغم كل شيء، وبدأ العذاب. متى، متى يمكنه أن يعرف حقيقة الأمر؟

لقد فعل كل ما يمكنه فعله، حتى انتهى الأمر بالجبون، ذلك القرد الرمادي اللعين، إلى جعله يتخلى عن كل أفكاره الأخرى. وصار رجلنا يقضي الساعات وهو يدون جملاً مماثلة لتلك التي سمعها من القرد: «الجدول ينخفض...»، «أغلقوا النافذة...»، «العاصفة آتية...»، «ايبانغو عشرة نمور...»

إنه أمر مضحك دون شك؛ ولكن يجب علينا أن ندرك أنه لا وجود لما هو مضحك في سبيل تفسير سبب إصابتنا بالإغماء كرباً لما يقوله لنا قرد.

جميع العبارات التي كان يصوغها كانت تمر ببرود ودون أن تؤثر فيه. فطلب من أحد أصدقائه أن يصوغ له مثلها، لكن الصديق ضحك من هذه النزوة وقال له في دقيقة واحدة مئة عبارة عن أنهار وأبواب وأسود؛ ولكن دون التوصل إلى أي نتيجة. وقد تأمله ذلك الصديق أخيراً باهتمام بالغ، لأن من يطلب مثل طلبات المجانين هذه، لن يلبث أن يتحول إلى مجنون عما قريب. وكان ذلك هو الرأي المتواضع الذي اقتنع به بوكس نفسه أيضاً.

وفي أثناء ذلك، واظب على الجلوس قبالة الجبون كل صباح،

وكان يقضي هناك الساعات في تأمله دون حراك. وخلال أربعة أيام متتالية، لم ينطق القرد بكلمة واحدة. أجل، كان يقوم بتعويج فمه أحياناً؛ ويبدي الكثير من الإمارات الفلسفية أيضاً وهو يقاطع ساقيه؛ ولكن دون أن يفوه بأي جملة.

وفي صباح أحد أيام السبت، وبينما كان بوكس ساهماً وهو يزيح الرمل بقدمه من جانب إلى آخر، سمع القرد يقول:

ـ كم بقي؟

فرد بوكس مباشرة:

ـ أربعة!

وقفز من مكانه مباشرة أيضاً وهو يوشك أن يصرخ. لقد رد مرة أخرى على القرد! لقد رد عليه دون أن ينتبه إلى ما قام به، ولكنه كان يشعر بأنه **يعرف** الشيء الذي سأله الجبون عنه؛ والدليل على ذلك أنه أجابه قائلاً: أربعة! ولكن أي **أربعة**؟ وعاودته من جديد الذكرى القديمة بأنه كان قد فعل شيئاً... ولكن، ما هو ذلك الشيء بحق الرب؟

وبينما يداه متشنجتان على الحاجز، راح يلتهم الجبون بعينيه؛ ولكن هذا الجلاد اللعين، المتمسك بقضبان القفص، واصل النظر إلى الحاجز لأنه أمام بصره.

وأدرك بوكس ببساطة أنه سيكون من المستحيل عليه أن يواصل الحياة ما لم يحل هذا اللغز الرهيب. ولأن ذلك لن يكون سهلاً

دون وجود القرد إلى جانبه، فقد قرر امتلاكه، بادئاً بأكثر الأساليب بداهة: شراؤه. وذهب عندئذ للتحدث مع مدير الحديقة. وجده برفقة الزرافات يقدم لهن أقراصاً من الشعير والسكر.

بدأ بوكس الحديث وصوت القرد ما يزال في مسمعيه:

ـ أرغب في أن أعرف إذا ما كنتم تبيعون حيوانات الحديقة.

ـ أجل، إننا نبيع بعضها.. النماذج المكررة.

ـ أقصد قرداً رمادياً. الجبون الذي في القفص الدائري.

ـ إنه ليس من جنس الجبون.

ـ ليس لذلك أهمية. هل لديكم نموذجاً آخر منه؟

ـ لا يا سيدي، إنه الوحيد.

ـ إذن، لا...؟

ويبدو أنه لم تكن لدى المدير في ذلك الصباح رغبة كبيرة في الحديث. فقد نظر إلى بوكس عرضاً، وقال له لكي يقطع المحادثة ويواصل اهتمامه بالزرافات:

ـ إنه ليس للبيع.

عندئذ قال بوكس بحنجرة جافة:

ـ أنا مستعد لدفع سبعمئة بيزو.

فرفع المدير نظره عن فم الزرافة مرة أخرى وقال بلهجة حاسمة، كي يدرك هذا اللجوج أن الحديث قد انتهى:

ـ إنه ليس للبيع أيها السيد!

انسحب بوكس مشوشاً. وبينما هو يجتاز الجسر، ألقى نظرة على الجبون، وحيال ذكرى العلاقة العميقة والغامضة التي تربطه برباعي الأيدي اللعين، قرر اللجوء إلى وسيلة أخرى ليست أقل فعالية من الشراء: سرقته.

إن سرقة حيوان من حديقة الحيوان مهمة في منتهى الصعوبة، وهي صعبة إلى حد أن الرغبات التي راودت الناس أكثر من مرة في هذا الميدان لم توضع موضع التنفيذ مطلقاً. وعندما نقول مطلقاً يكون في قولنا بعض المبالغة، ذلك أن بوكس تمكن من سرقة الجبون، سرقه بنفسه، دون أن يترك منه سوى الذكرى ورائحة جبون لا يخطئها الأنف في القفص الذي كان يشغله.

II

في مساء أحد الأيام، وبعد عشرين يوماً من لقاء بوكس مع المدير، تلقى هذا الأخير رسالة تقول:

«أظن أن الواجب يفرض عليّ إطلاعكم على أنه ستتم سرقة أحد القرود الكبيرة الموجودة في القفص الدائري. وأعتقد أن هذا واضح بصورة كافية. ـ ن. ن.»

وبتداعي خواطر سعيد، تذكر المدير فور الانتهاء من قراءة

الرسالة، ذلك الشخص الذي طلب منه في صباح أحد الأيام شراء الجبون. فقال: «همم... ليسامحني الرب إذا لم تكن لذلك المشتري العابر علاقة بهذا».

ولكن أي مدير حديقة حيوان يعرف جيداً العاملين لديه. وقد كان واثقاً من كفاءتهم، وخصوصاً المسؤولين عن القرود. سرقة قرد! يجب النظر في الأمر! وبالرغم من كل شيء، ومع أنه ضحك لهذه الفكرة السخيفة، إلا أنه توجه إلى القفص المعني. كانت الشمس قد بدأت بالغروب، وكان العاملون منهمكين حينئذ في حبس القرود.

دخل إلى ساحة أقفاص القردة وصوّب نظرة سديدة إلى الأبواب والقضبان، ثم ابتسم: لا داعي للخوف. ولكن الرسائل مجهولة المصدر هي شيء أقوى من ابتسامة مدير حديقة حيوان. وقد كان هذا أيضاً هو رأي المدير المعني. فقال لنفسه ساهماً: «لسبب ما أرسلوا التنبيه. قد يكون المرسل مجنوناً، ولكن أسلوب الرسالة والخط الذي كتبت به لا يوحيان بالجنون. أما إذا اعتبرنا الرسالة من شخص يريد المزاح، فليس هناك مازح يكتب بهذا الإيجاز».

وفي النهاية، تذرع بمسألة النظافة ووجه إلى العمال سؤالين أو ثلاثة أسئلة. وكانت وجوه الرجال كما هي في العادة دائماً؛ ولكن تلقي الرسائل المغفلة ليس بالأمر الذي يمكن إغفاله. وبدا له ـ

بصورة شديدة الغموض ـ أن أحد العمال يتحاشى النظر إلى وجهه. ولكنه تمكن من نسيان الأمر برمته بعد يومين، وعندئذ تلقى رسالة أخرى:

«أعتقد أنه عليّ أن أبلغ السيد المدير للمرة الثانية بأن أحد القرود، وهو القرد الرمادي، سيُسرق من الحديقة قبل انقضاء خمسة أيام. ـ ن. ن.»

وعاد المدير يدمدم من جديد: «همم... هذا الأمر لا يبدو مزاحاً؛ فمن يكتب هكذا هو شخص تجاوز سن المزاح وروحه». وحيث أن المدير كان يرى أن أي نية في السرقة لا يمكن أن تأتي إلا من داخل الحديقة، فقد تضاعف ارتيابه بالعامل ذي النظرات الزائغة. لابد من حراسة القفص وإصدار الأوامر إلى الدورية الليلية لإيلائه اهتماماً خاصاً.

وبينما هو يفكر في الأمر في اليوم التالي، أرسل إليه أحد أصدقائه بطاقة توصية يقول فيها:

«صديقي العزيز.

يسعدني أن أرسل إليك حامل هذه الرسالة، وهو رجل فقير ومعيل لعدد كبير من الأولاد، ولدي عنه أفضل المعلومات، لترى إن كان بإمكانك أن توفر له أي عمل عندك.

ويبدو أن الصديق الذي أوصاني به قد سمع صدفة من العاملين في الحديقة، أن ثمة محاولة لسرقة أحد القرود وأنه سيتم تشديد

الحراسة. فإذا كان يفيدك في هذه القضية، تكون قد لبيت بذلك رغبة صديقك

ر. مارتينيث»

ودمدم المدير بعد أن انتهى من القراءة:

ـ تمام. تمام. هذا هو سبب عدم تجرؤ ذلك المروض على النظر إلي مباشرة.

وبعد أن ألقى نظرة سريعة على حامل الرسالة، وهو شخص لا يهمه أمره من قريب أو بعيد حالياً، قال له:

ـ تفضل وانتظرني لحظة واحدة.

ومضى إلى قفص القرود.

بقي حامل رسالة التوصية البائس في مكانه؛ ولكن ابتسامة خفيفة ظهرت على شفتيه فور ابتعاد المدير. وقال في نفسه:

«لم يتعرف عليّ. إنه يشعر بخوف رهيب من هذه القضية. الآن سيوقن أن العمال يفكرون في سرقة القرد. فحيث أنه لم يُطلع أحداً على الأمر، فإن شيوع الخبر في الخارج يعني أن العمال قد تحدثوا في الأمر فيما بينهم. العمال سيغضبون لاتهامهم، وعندئذ سيعتبر المدير أن شكوكه صحيحة، وسيضاعف الحراسة الليلية، وأنا جاهز لهذا العمل. ولأنه سيرتاب بي أنا أيضاً، فسنعمل على إنهاء القضية اليوم بالذات».

في أثناء ذلك كان المدير قد وصل إلى القفص وراح يستجوب المروضين بفظاظة:

ـ من منكم قال إن هناك قرداً سيُسرق من هنا؟

فتح العمال أفواههم بدهشة؛ فواصل المدير كلامه غاضباً:

ـ فتح الفم ليس جواباً! لقد نُقل عنكم أن هناك من يفكر بسرقة أحد القردة. فمن هو الذي قال ذلك؟

أجاب أحدهم:

ـ أنا لم أقل كلمة واحدة؛ ولست أعرف شيئاً.

وأضاف آخر:

ـ أنا لم أتحدث مع أحد في هذا الأمر.

ـ حسن، حسن! لست أتهم أحداً! ولكنني أحذركم من أنني لا أريد أي نوع من القال والقيل.

فدمدم الرجال باستياء:

ـ لم يحدث هنا أي قيل وقال.

ـ حدث أم لم يحدث، الموضوع كله خرج من هنا. وأعود وأكرر أنني لا أريد أي أقاويل عن القرود أو عن أي شيء آخر... إنني أحذركم!

ومضى المدير وهو مقتنع أكثر من أي وقت مضى بأنه إذا كان هناك شيء ما، فإنه قد دُبِّر في محيط القفص. لم يكن يعتقد بأن

العمال هم المذنبون الأساسيون، ولكنه كان مقتنعاً بتواطئهم. وقرر تعزيز الحراسة الليلة، لأن عملية السرقة لا يمكن أن تتم إلا في الليل.

وعندئذ تذكر الشخص الذي أرسله إليه صديقه. الوظيفة التي سيكلفه بها ليست كبيرة، ولكن لا يوجد لديه شاغر آخر.

وهكذا دخل على رجلنا الذي كان ينتظر مطمئناً. ولكنه عندما تأمله بتمعن أحس باختلاجة خفيفة: فهذا الوجه له علاقة ما بحكاية السرقة.

وقال بوكس في نفسه: «انتهى كل شيء! لقد تذكرني».

وكانت تعابير خيبة الأمل حيال الكارثة الوشيكة الوقوع بادية على وجهه بوضوح، حتى أن المدير عزاها إلى خوف الرجل المسكين من تعابير وجهه هو بالذات الذي مازال يحمل أثر غضبه من قضية العمال. وقال في نفسه مشفقاً:

«هذا المسكين يظن أني سأطرده».

كان التنكر الوحيد الذي قام به بوكس هو نزع نظارته. ولكن التغيير الذي يحدثه مثل هذا العمل على ملامح شخص ضعيف البصر معروف جيداً. أضف إلى ذلك أنه لم يكن قد حلق ذقنه منذ عشرة أيام. فضلاً عن أن بوكس يتذكر جيداً أن المدير في لقائه السابق به كان يدقق في وجه الزرافة أكثر من اهتمامه بوجهه.

وقد تلاشى تماماً ارتياب المدير العابر أمام مظهر الرجل

المسكين ذي العائلة الكبيرة الذي أرسله إليه صديقه. فقال وهو يمزق البطاقة:

- حسن. لا يوجد لدينا حالياً أي وظيفة شاغرة في الحديقة. إنما هناك عمل يمكنك القيام به ريثما يتوفر ما هو أفضل...

فرد بوكس:

- أجل يا سيدي؛ أي شيء.

- جيد؛ العمل المقصود هو حراسة أحد الأقفاص ليلاً. هل يناسبك؟

- نعم يا سيدي. متى أبدأ؟

- منذ هذه الليلة بالذات.

وبعد ساعة من ذلك، تلقى بوكس التعليمات، ومسدساً وهراوة.

«بهذه الطريقة سيفكر أصدقائي المروضون ملياً قبل أن يقتربوا من القفص. وإذا كان هذا الحارس الليلي ماكراً، على الرغم من أولاده الثمانية وتوصية صديقي، فسندرس ذلك جيداً في الغد».

هكذا فكر المدير وهو في فراشه.

ولكن لن يكون لديه وقت للدراسة. ذلك أن بوكس الذي زيف بطاقة التوصية وتفاصيل أخرى، كان يعرف جيداً أنه لن يستطيع

البقاء لأكثر من ليلة واحدة. ولكن ليلة واحدة كانت كافية لشخص يعتمد على تواطؤ شبه كامل من الهدف الذي سيسرقه.

لقد كانت خطته، باختصار، هي التالية:

لا يمكن سرقة القرد إلا على يد حارس ليلي. وحيث أنه لا يمكن لبوكس أن يصبح حارساً ليلياً بسبب عدم وجود وظيفة شاغرة، فقد كان عليه أن يخلق وضعاً يفرض الحاجة إلي تلك الوظيفة ويضعه على اتصال مباشر بالقفص الدائري.

وهكذا دبر المؤامرة. وكان هو نفسه من كتب الرسالتين إلى المدير حول محاولة السطو. وكان هدفه ببساطة هو جعل المدير يفقد الثقة بالعمال ـ أو يفقد قدراً من الثقة بهم ـ ثم تحدث بحرارة إلى صديق له كان في الوقت نفسه صديقاً حميماً للمدير، عن وضع رجل فقير من معارفه، أب لثمانية أطفال، وقال إنه يكفل استقامته، وإنه سمع أنهم سيعززون الحراسة في الحديقة لأن هناك محاولة لسرقة أحد أثمن القرود.

بعد أن يقرأ المدير الإشارة التحذيرية في الرسالتين المغفلتين، لا يعود بإمكانه إلا أن يرتاب بالمروضين والحراس، وأن يستخدم ذلك الرجل البائس لهذا الغرض. وحين تأتيه توصية حارة من صديق، سيكون من الصعب الارتياب باستقامة الموصى به، وكانت تلك هي حالة بوكس.

الحقيقة أن بعض المخاوف راودت المدير في تلك الليلة.

ولكن حسابات بوكس لم تكن تسمح له بأي إعادة نظر، على الرغم من أنه كانت لديه أفكار كثيرة غير واضحة فيما يتعلق بتلك المرحلة الأولى من المؤامرة، وكذلك الأمر بالنسبة إلى المرحلة الثانية، ثم عملية السرقة نفسها. فقد كان يواجه قبل كل شيء أمرين غير مواتيين: أولهما صراخ الجبون، لأنه لن يتوقف عن الصراخ دون ريب؛ والثاني هو التنقل برفقة قرد عبر المدينة. ولكن بوكس كان يعرف أن هناك عربات ليلية تقف في ساحة إيطاليا، وأن حوذييها يكونون نائمين عادة على مقاعدهم إلى أن يوقظهم زبون بعد أن يصعد إلى العربة. وهم بالتالي لا يرون شيئاً. تبقى مشكلة الصرخات. وفي هذا الشأن كان بوكس يثق بنقطة لصالحه: أي بتواطؤ القرد نفسه. فحين تكون لدى حيوان القدرة على الكلام أمام شخص بعينه فقط، وحين يكون ما يقوله يهز أعماق روح ذلك الإنسان وجسده، فإن ثمة مجال للافتراض بأن هناك علاقة عميقة بين هذين الكائنين. وبينما بوكس يرتعش وهو يتذكر جزعه، كان يتساءل: «هل سيقبل المجيء معي؟ هل سيصرخ؟» ولم يكن يعتقد ذلك. ولكن ما لم يكن يعتقده بوكس كذلك هو أن تؤدي تلك العلاقة الغريبة التي تربطه بالقرد إلى النتيجة الجنونية التي يريد التوصل إليها.

III

كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل. وكانت الليلة مظلمة وشديدة البرودة. الحديقة تهجع في الصمت. ويعلو بين الحين والآخر صوت نسر أو زئير أسد ليكسر ذلك الصمت المخيم. فيرد عليه من الطرف المقابل حيوان آخر، ثم لا يلبث أن يخيم على الجميع صمت الأمان من جديد. وكانت أصوات نعيب قلقة أو زمجرات صماء تتعالى مع اقتراب الدورية الجوالة ثم تخمد عند ابتعادها.

كان بوكس يتمشى قبالة القفص الدائري بمعطفه الفضفاض جداً، الذي يغطي يديه ويكشف عن رقبته ـ ليس هناك ما يبعث على الإحساس بالبؤس مثل معطف كهذا ـ وكان قد وصله صوت الدورية الليلية ثلاث مرات:

ـ هل من جديد؟

وكان بوكس يرد:

ـ لا جديد.

وهو ينتظر الآن الدورية التي ستصل بين لحظة وأخرى. لقد انقضت مع ذلك عشرون دقيقة بدت لبوكس وكأنها عشر ساعات، فقد كانت قدماه متجمدتين. وأخيراً جاءت الدورية، ولم يكن ثمة جديد. وابتعد الرجال باتجاه جناح الفيلة. وحين تلاشى وقع

الأقدام، ومضت دقيقة أخرى، اجتاز بوكس الحاجز وعالج قفل الباب بخطاف.

لقد أصبح في الداخل، ولم يكن يرى شيئاً. ولكن ضجة خافته صدرت عنه، فأحس بها أحد القردة وأطلق صرخة مفاجئة. بقي بوكس جامداً دون حراك وهو يحبس أنفاسه ويكبح ضربات قلبه. كان يشعر بأن القرود كلها قد استيقظت، وأنها تصغي إليه بآذان مرهفة. مرت خمسُ... عشرُ...خمسَ عشرة دقيقة من الكرب. وفجأة أدرك بوكس خطأه: لقد دخل متسللاً مما أثار ذعراً طبيعياً لدى القرود. يجب عليه أن يريها نفسه بأي ثمن. أشعل بغتة عود ثقاب ودار به حول رأسه. وعلى الفور أعلنت له مجموعة من الضربات الصماء عن نجاحه: فقد تقدمت القرود إلى الأمام وألصقت وجوهها بالقضبان الحديدية، وراحت تتطلع وهي تكاد تموت من الفضول المذهول.

اتجه دون تسرع إلى قفص الجبون، فأدار المفتاح وأطفأ عود الثقاب. ووقف دون حراك مرة أخرى. كان يشعر بالقردة من حوله متأهبين في الظلمة. وبدأ ليمور يزعق بأصوات صماء. لم يتجرأ بوكس على إشعال عود ثقاب آخر خشية أن يظهر انعكاس البريق في الخارج. ولكن كان عليه أن يهدئ مرة أخرى رعب القردة المتزايد. فقرر أن يتكلم:

ـ حذار من إثارة ضجة! قال ذلك آمراً بصوت خافت، مفترضاً

أن القردة معتادة على هذه العبارة. إلا أن التأثير الذي أحدثته كلماته الموجهة إلى القرود كان أشد وقعاً عليه هو نفسه.

فتح باب القفص مرتجفاً، وقبل أن تدخل يداه إليه، أحس بيدي الجبون الحديديتين تضغطان على حنجرته.

زمجر بوكس بصوت مخنوق:

ـ اللعنة!

وبينما كان يمسد بيده المعصمين اللذين يغطيهما الشعر، وجه قبضته بعنف نحو الجبون.

كانت الضربة رهيبة: أفلتت اليدان الحنجرة، وارتطم القرد بالقضبان الحديدية. ثم ساد الصمت المطبق القفص لدقيقتين.. دقيقتان طويلتان. كان بوكس يسمع في أثناء ذلك أنفاس القرود المتهدجة فيما حوله؛ ويسمع عند قدميه أنفاس الجبون المتسارعة أكثر فأكثر.

كان لابد له من أن يغادر بسرعة ودون إضاعة لحظة واحدة. فانحنى وأمسك الجبون من يده وخرج معه خارج القفص. وبعيداً، عند ردهة الدببة، سمع وقع خطوات الدورية تتردد في الخندق. أغلق الباب وراءه برفق وتوجه مع القرد نحو السور.

بدا وكأن الطريقة العنيفة التي رد بها بوكس على هجوم القرد قد ملأت هذا الأخير بالذهول. وهكذا لم يجتز الحديقة كلها منقاداً من يده بوداعة وحسب، بل انه لم يُظهر أدنى قدر من المقاومة

لدى اجتياز السور. فبقفزة واحدة، ودون أن يلامس السور تقريباً، اجتاز الفضاء وسقط إلى جانب بوكس.

لقد أصبحا الآن في الشارع، في جادة سارمينتو المقفرة والمثلجة. تطلع بوكس في كل الاتجاهات. وهناك، في ساحة إيطاليا، قبالة محطة الحافلات كانت تلمع فوانيس عربة. ولكن الحوذي لم يكن جالساً على المقعد.

دمدم بوكس:

ـ لابد أنه داخل العربة. هذا لا يناسبني.

ولكن الوقت كان ينقضي، ويمكن للدورية أن ترجع بين لحظة وأخرى إلى القفص الدائري وتلاحظ غيابه، وتستنفر الحديقة كلها. كان يرتعش من رأسه إلى قدميه، وكان يشعر في يده بارتعاش جسد الجبون. إن الإصابة بنزلة صدرية ستكون محتمة إذا ما بقيا هناك لحظة أخرى، ولكنهما إذا تقدما إلى الساحة فسيكون من السهل اكتشاف أمرهما. عندئذ قامر رجلنا برئتيه مقابل نجاح المغامرة. فخلع معطفه ووضعه على كتفي الجبون رافعاً ياقته حتى أذني القرد. كانت أذيال المعطف تتجرجر على الأرض فيبدو، وهو الواسع على بوكس، وكأنه يمشي وحيداً يملؤه الهواء.

وهكذا تقدما نحو الساحة، وتوقفا عند كشك بيع التذاكر. وكانت هناك في الجهة الجنوبية ثلاث عربات متوقفة عند السور الجديد لحديقة النباتات. اثنتان منها كانتا خاويتين، أما في الثالثة

فكان الحوذي يجلس على مقعد القيادة وهو غافٍ ورأسه متدلٍ إلى أسفل.

ألقى بوكس نظرة إلى ساعة المحطة.

ـ إنها الثالثة والنصف... خلال عشر دقائق ستصل الدورية إلى القفص ـ فتقدم بتصميم بمحاذاة سور حديقة الحيوان، ومرّ قبالة بوابة المدخل ثم اجتاز الشارع باتجاه حديقة النباتات. ولكن خطواته كانت تدق بقوة في سكون الليل. إذا ما استيقظ أي واحد من الحوذيين فسيضيع كل شيء هباء. توقف بوعي، وخلع حذاءه وجوربه. ودون أن يسمع أي صوت سوى صوت قلبه مرّ بحذاء العربتين الهاجعتين وتسلل بخفة إلى العربة الثالثة.

تكور الجبون في العربة، وأخفاه بوكس بجسده تقريباً. وبعد ذلك لمس ظهر الحوذي. فالتفت هذا وقد فوجئ، وسمع من يقول له من داخل العربة:

ـ شارع سييرانو. اثنان وعشرون، أربعة وأربعون!

حاول الحوذي الذي ما يزال غافياً أن ينظر إلى ما تحت غطاء العربة، ليس بدافع الفضول وإنما لكي يسمع بصورة أفضل:

ـ أي رقم قلت...؟

ـ اثنان وعشرون، أربعة وأربعون!

بعد لحظة كانت العربة تتهادى في الشارع. ولكن الحوذي كان ما يزال يشعر بنعاس شديد، وكان على وشك الصعود إلى

الرصيف مرتين أو ثلاث مرات. فكر بوكس في أن ينبهه إلى خطورة هذه الحركات، ولكنه أحجم عن ذلك قائلاً لنفسه:

«هذا أفضل. فهو لن يتذكر الرقم غداً إذا ما حدث أي شيء».

وصلوا. ودفع بوكس الأجر للحوذي وهو في العربة، ثم نزل مع القرد بسرعة.

أحس بوكس بأن الحوذي ينظر إليهما، ولم يكن مخطئاً في ذلك. فعندما أخرج المفتاح من جيب بنطاله الخلفي، ألقى نظرة عابرة إلى الرجل، وكان الحوذي المثقل بالنعاس الذي يوشك أن يغفو، يصوب نظره ببلاهة إلى تلك الهيئة الغريبة المتدثرة بالمعطف. فقال بوكس لنفسه وهو يتلاعب بالمفاتيح:

«لن يستطيع ملاحظة شيء لحسن الحظ».

ثم رفع صوته متوجهاً نحو الحوذي لكي يفهم جيداً أنهما لم يعودا بحاجة إليه:

ـ حسن، لقد وصلنا!

فهز الحوذي رأسه مستيقظاً وحث الجوادين وانصرف مبتعداً.

تابعه بوكس بعينيه، وعندما أصبحت العربة على بعد نصف كوادرا، أخرج المفتاح من القفل، واجتاز الشارع بسرعة ثم انعطفا إلى شارع غواتيمالا. وبعد خمسة عشر متراً أخرى دخل بوكس أخيراً إلى بيته.

كما هو واضح فإن بوكس لم يقترف حماقة التوجه مباشرة إلى

بيته بالعربة، وحلّ بذلك في لحظة واحدة مشكلة البحث التي ستبدأ في اليوم التالي. فإذا ما احتفظت ذاكرة الحوذي بالعنوان، وهو أمر ضعيف الاحتمال في حالة السبات التي كان فيها، فإنه سيشير إلى شارع سييرانو، وإلى الرقم اثنين وعشرين/ أربعة وأربعين، حيث رأى الراكب الذي صعد معه من ساحة إيطاليا وهو يدخل، وسيبحث التحريون هناك دون جدوى عن آثار اللص والقرد. وإذا أضفنا إلى ذلك أن بوكس كان قد انتقل إلى بيت جديد قبل عشرين يوماً وباسم مزيف، دون أن يترك لمن يعرفونه ما يدل على عنوانه الجديد، فإنه يصبح من السهل الإدراك أن صديقنا لم يكن يشعر بأدنى قدر من القلق في هذا الشأن.

IV

قلق الأيام السابقة لعملية السطو، وكل الانفعال العصبي المفرط في الليلة الأخيرة، أنسى بوكس سبب اضطرابه الأصلي. والآن، هاهو ذا الجبون إلى جانبه، على تماس مباشر معه.. هذا القرد الذي يمارس عليه سطوة مشؤومة من ماض قديم جداً. لقد كان يشعر بصورة غامضة مع ذلك بأن وراء هذه الظاهرة الغائمة ثمة شيء ربما لا يناسبه أن يعرفه.. شيء من أشياء الهند الرهيبة التي يمكن لها أن تحوّل إنساناً في ثانيتين إلى كائن حقير يتجرجر متثاقلاً وصارخاً على أربع قوائم. ولكنه يريد أن يعرف بأي ثمن، لأنه لا

يمكن لحياة إنسانية أن تكون محتملة حين تكون مرتبطة بلسان وأسنان حيوان في حديقة الحيوان.

أشياء الهند...! هذا القرد من الهند. وفجأة سقط شعاع نور عمودي على دماغه المظلم.

إنها مسألة لها علاقة بالأسلاف.. مسألة ميراث قديم! منذ آلاف السنين عاش أسلافه، أو أحد أسلافه في الهند. والقرد، هذا الجبون **ينحدر** من إنسان كان قد عاش مع سلفه في السهل نفسه، على ضفة النهر نفسه الذي يفيض مثل جميع أنهار شمالي الهند، ويعلو خمسة أمتار في ليلة واحدة مدمراً الزرع والبيوت والماشية.

النهر يتعاظم... أجل، لاشك في ذلك! فالحفيد الألفي بوكس يتعرف في روحه الآن على كرب جده البعيد حيال تعاظم النهر الذي يجرف معه كل شيء.

كيف برزت فيه، بعد قرون وقرون، انفعالات سلفه الذي مات منذ آلاف وآلاف السنين؟ إنه لا يعرف ذلك؛ ولكنه يعرف بالمقابل قصة الخادمة الفرنسية التي كانت تعيش في تورس، والتي كانت تحلم بصوت عال في إحدى الليالي وسمعوها تتكلم بلغة غريبة. وقد تبين أنها اللغة الإغريقية القديمة التي لم يعد هناك من يتكلمها منذ عشرة قرون.

افتحوا البوابة... ايبانغو الأسد... أجل، كان الماء يعلو وكان لابد من الإسراع في فتح بوابة السور حتى تتمكن الجواميس من

الهرب والنجاة. والطوفان الذي كان يندفع في دفقات هائلة، كان يجرف معه غابات بكاملها، وفوقها أسد يزأر برعب ما لبث أن حط في نهاية الأمر على الضفة... احذر الأسد! حذار!

ولكن كيف؟ كيف يمكن لقرد حقير أن يكون متحدراً من ذلك الرجل، صديق سلفه، الذي أطلق صرخة الإنذار أمام الفيضان؟ أن تكون البشرية متحدرة من القرد، أمر وارد ومحتمل؛ أما أن تتحول كل الطبيعة البشرية الراقية والنبيلة إلى بهيمة مغطاة بالشعر...

لم يكن هناك مع ذلك أي حل آخر. فمن يدري أية خلايا تحركت في دماغ الحيوان المتحجر عندما بوغت برؤية بوكس، فنطقت حنجرته البهيمية فجأة بتلك الكلمات التي نطق بها سلفه الذي كان إنساناً آنذاك. الآن يمكن لبوكس أن يفهم تماماً حالة الغم والقلق التي انتابته حين سمع تلك العبارات.

كانت الساعة الرابعة بعد الظهر. وكان قد حبس الجبون في غرفة مظلمة لكي يهدئ الحيوان ويتمكن هو من التفكير وحيداً. وحين وجد الحل، اتجه إلى الغرفة المغلقة وفتح الباب بحذر.

في أقصى الغرفة، قبالة الجدار الأبيض، كان الجبون يقف على قدميه منحنياً من منتصفه وثابتاً في مكانه. حين سمع الضجة وراءه التفت برأسه قليلاً، ولكنه لم يبدل وضعه.

اقترب بوكس مسرعاً. كانت قشعريرة عميقة تذرع جسد القرد. أمسك بوكس بيده فوجدها تتوقد بالحمى. أبعده عن الجدار وهو

يكاد يموت قلقاً، ثم فتح النافذة وأمسك رأس الجبون بين يديه. وعندئذ لاحظ اصطكاك أسنانه. ركز بوكس نظره في القرد. ومن عمق حدقتي الحيوان كانت العينان تعكسان خضرة شاحبة. لقد كانت عينا الجبون المؤرقتين تحدقان فيه...

مدد بوكس الجبون بسرعة على السرير، ثم دثره جيداً وخرج مغلقاً الباب بالمفتاح. مضى مسرعاً إلى بيت طبيب صديق له.

ـ لوبيث، لقد جئت بحثاً عنك من أجل حالة مستعجلة... وغريبة تماماً. هل يمكنني الوثوق بك؟ إنها قضية يجب ألا يعلم بها أحد.

ـ إذن...

ـ لا، لا؛ إنني بحاجة إليك؛ ولكنني أريد الحصول على وعد منك كطبيب بألا تُطلع أحداً على أي شيء... أتوافق؟

ذهبا معاً. ومع أنه اطلعه على الأمر لدى وصولهما، إلا أن الطبيب فتح عينيه على اتساعهما أمام السرير الذي كان الحيوان المتدثر يرقد فيه وبصره مصوب إلى السقف وهو يتنفس بتثاقل.

ولكنه أمسك مع ذلك بالمعصم ذي الوبر المنفوش وجس النبض.

فتوسل إليه بوكس:

ـ قرّب أذنك منه. لن يتحرك.

ففحصه الطبيب بالتسمُّع، ودمدم:

ـ أجل، إنه مصاب بذات الرئة. ثم أضاف بإهمال ودون أن ينظر:

ـ أليس هذا هو قرد الهولمان الذي في القفص الدائري؟

ورد بوكس متعجلاً:

ـ أجل، هو نفسه. أهو مريض؟

ـ إنه محموم بصورة رهيبة.

استدار الطبيب نحو بوكس، وسمع فجأة وراء ظهره:

ـ بسرعة! لقد دخل إلى الحجرة!

قفز الطبيب في مكانه والتفت بوجه شاحب كالموت. وبقي متشنجاً خلال عشر ثوانٍ وقد بدت عليه أقصى علائم الرعب التي يمكن تصورها. ارتعش بوكس بعنف وكأنه أحس بتسلل حيوان بارد تحت القميص، في ظهره. شحب لونه وتضمخت جبهته بالعرق.

أدار الطبيب رأسه ببطء نحو بوكس. وسأله بصوت أجش:

ـ أنت لم تتكلم؟

وتأخر بوكس هنيهة قبل أن يرد. ثم تلعثم أخيراً وهو يلقي على ما حوله نظرات كرب محمومة:

ـ لا، لم أكن أنا من تكلم.

مرت عشر ثوان أخرى من الصمت المطبق.

ـ أكنت تعرف أنه يتكلم؟

ـ أجل...

صوب الطبيب بصره ثانية باتجاه السرير. وتلعثم:

ـ هذا مرعب...

وأحس بأصابع بوكس المتشنجة على كتفه:

ـ اذهب... من الأفضل أن تنصرف.

وارتفع صوت من السرير:

ـ إنه يصل، إنه يصل!

ـ حذار! ـ صرخ بوكس بذلك وهو يقفز إلى الوراء ويشير بإصبعه الممدودة باتجاه السرير: ـ إنه هناك! حذار!

قفز الطبيب جانباً بعنف، فاصطدم بالكرسي ووقع أرضاً. وبينما هو ما يزال على الأرض، وقبل أن يتاح له الوقت لإدراك أي شيء، رأى بوكس يسرع ويطفئ المصباح بالنفخ عليه.

لم يعد يسمع أي صوت في الظلام الدامس الذي خيم على الغرفة. نهض ببطء وهو يرتعش من رأسه إلى قدميه، ولم يتجرأ على إشعال عود ثقاب.

نادى بصوت خافت:

ـ بوكس!

وبقي صمت الموت نفسه هو السائد.

فرفع صوته أكثر ليتشجع:

ـ بوكس! ماذا بك؟... ماذا جرى لك؟

وكان الصمت هو نفسه. لم يكن يُسمع أدنى صوت. ثم تعالت فجأة صرخة حادة، خشنة، متوحشة وباعثة على القشعريرة، مثل غصن يتكسر في الأعالي. ثم صرخة أخرى، وأخرى، وأخرى.

«إنه القرد... لقد جن من الحمى»، قال الطبيب ذلك في نفسه مذعوراً، وقفز إلى الوراء. أشعل عود ثقاب بتعجل، وما إن اشتعل حتى أطلق صرخة مدوية: فقبالة الجدار كان بوكس يقعد ويتلوى تلويات هذيانية، مطلقاً الصرخات، وعيناه خارجتان من محجريهما، وفمه متسع حتى أذنيه. كان هو من يطلق تلك الصرخات المرعبة؛ أما القرد فكان ينام نوماً ثقيلاً.

صمت بوكس حين رأى لهب عود الثقاب الهادئ، ونظر إلى الطبيب وقد سيطر عليه الذهول. وشيئاً فشيئاً راح يستعيد ملامحه الطبيعية، وبينما هو ينهض لم يزح نظره عن الآخر. وبعد لحظة من ذلك، أشعل المصباح دون أن ينطق بكلمة واحدة. ثم قال:

ـ هلم بنا إلى غرفة المكتب. ما رأيك؟ سأوضح لك كل هذا العبث.

أخيراً! هذا كلام رجل سليم العقل. وتبعه الطبيب وهو ما يزال مهتزاً بعمق. وبينما هو يمشي وراءه، كان يستعيد مع ذلك صورة الوضع الغريب الذي وجد فيه بوكس. فقد رأى من قبل مثل تلك

التلويات الغريبة، ولكن أين؟ لم تكن تلويات **إنسان**، وهذا هو كل ما كان يعرفه.

روى بوكس كل شيء لصديقه: مروره العابر بالقفص، كلمات القرد، شعوره بالقلق والغم، عملية السرقة (دون أن يوضح التفاصيل)، والتفسير الذي توصل إليه صباح هذا اليوم، وإصابة الجبون بذات الرئة.

ـ الآن يمكنك أن تفهم لماذا فقدت السيطرة على نفسي قبل قليل حين سمعت القرد. من المؤكد أنه فيما مضى، منذ آلاف السنين، رأى سلف القرد وسلفي حيواناً خطراً ينسل داخلاً إلى البيت، ربما أفعى كوبرا أو شيء من هذا القبيل. وقد كانت الذكرى حية إلى حد لم أستطع معه حين سمعت صوت القرد المحذر إلا أن أشعر بالكرب وكأنني أرى ذلك الحيوان ينسل زاحفاً.

كان الطبيب يستمع إليه باهتمام. وقد لاحظ أن هناك شيئاً تجاهله بوكس.

ـ وصرخاتك؟ قل لي، لماذا كنت...؟

فقاطعه بوكس متفاجئاً:

ـ أي صرخات تعني؟

فتلعثم الطبيب:

ـ أولم تنتبه...! أكنت تفعل ذلك دون وعي!

وفجأة، مثلما في وميض برق، تذكر الوضع الذي كان عليه

بوكس: لقد كان في وضع قرد! وعندما رفع بصره، وجد عيني بوكس مصوبتين نحو عينيه، فجمدتْ فكه قشعريرة طويلة. وقال لنفسه مذعوراً:

«ما الذي سيحدث؟»

تسلطت نظرة فوكس على الطبيب بزخم قاس ومؤرجح. إنها نظرة حيوان محاصر نقف في مواجهته رافعين عصا. لم يكن في تلك النظرة انعكاس لروح إنسانية مجنونة، وإنما بريق دامع وثابت لعيني بهيمة تستعد للانقضاض. وإحساس الطبيب بأنه يقف في مواجهة **حيوان** جعله يشعر بضيق شديد. وقال في نفسه:

«إنه مجنون، إنه مجنون شرس سينفجر بين لحظة وأخرى..».

ولكن بوكس كان قد استعاد رصانته، وتوجه إلى صديقه متكلفاً الابتسام بمشقة:

ـ أؤكد لك أن قصة القرد هذه قد سببت لي قلقاً أكبر مما يمكن لك أن تتصوره. وهاهو الآن مريض... لا يمكن شفاء القرود من ذات الرئة، أليس كذلك؟

ـ شفاؤها غير ممكن عموماً، ولكن العناية الجيدة... عليك أن تشعل مدفأة في الغرفة.

ـ أجل... على كل حال، هذا الأمر سيبقى بيننا...

ثم أضاف وهو ينظر إلى وجه محدثه: ـ ولا كلمة واحدة لأي شخص يا لوبيث!

ـ لا، لقد وعدتك بذلك.

ـ هل تريد المجيء غداً؟

رد فعل لوبيث الأول كان الرفض؛ فهو ما يزال يرتعش من تذكر صرخات بوكس. ولكن غرابة القضية، وحدة الفضول نحو هذه القصة المأساوية الغامضة، كانا أقوى من الخوف.

ـ أجل، سأحضر غداً عند الغروب.

خرجا معاً حتى الباب. وقال له بوكس وهو يشد على يده:

ـ أتظن أنه لا يمكن العيش باطمئنان بينما **هذا** يتكلم و...؟

ـ لا، لا! لا أظن ذلك! قال لوبيث مودعاً وهو يشعر بقشعريرة أكبر.

لم يكن الطبيب يعتقد أنه قد أخطأ: فالقرد، وقدرته العجيبة على التكلم، وعملية السرقة، كل ذلك سيقود بوكس إلى الجنون العاجل. سيبدأ بتقليد الجبون ومن يدري أين سينتهي به المطاف. قرد مأساوي ومجنون يعيشان معاً...

وتذكر فجأة نظرات بوكس حين كان يحدق به في المكتب، فدمدم مرتعشاً:

ـ لم يكن ذلك تقليداً.

***

رجع بوكس إلى حجرته، أشعل السخان وحمله إلى حجرة

المريض، ووضعه في منتصفها. اقترب من الجبون وتأكد من أن حرارته ما تزال مرتفعة جداً. كان القرد يلهث، وكانت عيناه مفتوحتين ومثبتتين على السقف. قرَّب بوكس كرسياً من السرير وجلس عليه، وراح ينظر بإصرار إلى المريض. وشيئاً فشيئاً بدأ يشعر بأن جسده يتجمد. وبجهد بالغ انتزع نفسه من السبات، ومضى إلى حجرته وانهار على السرير، دون أن يتاح له الوقت لخلع ملابسه.

استيقظ في اليوم التالي في الساعة العاشرة، وكان يحس بثقل كبير في رأسه. وكان ينهكه تنظيم أبسط الأفكار في ذهنه، بل ولاحظ كذلك أنه صار يتكلم بتثاقل فريد. بدا له وكأنه لم ينطق كلمة واحدة منذ سنوات عديدة.

طلب قهوة، ولكنه ما إن تذوقها حتى أعاد الفنجان بعنف إلى طبقه:

ـ ماذا يوجد في هذه القهوة؟

ـ لا شيء يا دون غيلليرمو؛ إنها القهوة المعتادة ـ رد عليه بذلك خادمه، وهو شيخ هندي بائس من الجنوب، ترعرع في بيت أبوي بوكس.

ـ إنها فظيعة. لست ادري ما الذي يجعلني أفكر بشرب القهوة. هل طلبت منك قهوة؟

ـ طبعاً يا دون غيلليرمو!

ـ أعطني شيئاً آخر، إنني جائع.

وبما إن بوكس كان معتاداً على أكل شريحة من اللحم مع البيض كلما استيقظ وبه شهية إلى الطعام، فقد رجع فورتونو بعد قليل ليضع الطبق على الطاولة. ولكن ما إن تذوق بوكس الطعام حتى كرر حركة القرف التي أبداها سابقاً، وصرخ:

ـ ولكن، بحق كل الشياطين! أي قمامة هذه؟

ـ إنه لحم من عند الجزار المعهود يا سيد غييرمو؛ لقد أحضره للتو!

فصرخ وهو ينهض:

ـ ارفع هذا الطبق، بسرعة!

خرج فورتونو بالطبق، ثم رجع في الحال. فوجد بوكس يلتهم الموز وقد أشرقت ملامحه. فوقف الخادم مذهولاً.

«إنه يجلس بوضع غريب... يشم الموز باستمرار... يرمش دون توقف... إنه يأكل الموز مضطجعاً...! يمسك الموزة بكلتا يديه...! إنه يأكل مثل قرد!»

فتلعثم مرتعداً:

ـ دون غييرمو!

انقض بوكس مثل البرق على كل الموز المتبقي ثم قفز فوق الكرسي، بينما كانت حنجرته تطلق محاكاة فظيعة للغة إنسانية:

- ابارا - بارا - بارا - بارا...!

فصرخ الخادم الهندي وقد ازبأر شعره:

دون غييرمو!

صمت بوكس فجأة، ثم نزل ببطء عن الكرسي وقد شحب لونه بصورة قاتلة. وكان الموز يسقط مهروساً من جانبي قبضته المطبقة. حرك رموشه بسرعة دوارية، وأمسك كأس ماء. وعندما تركه كان قد رجع إلى حالته الطبيعية.

رآه فورتونو وهو يبتعد، ويدخل حجرة القرد، ثم يخرج بعد لحظة:

- سأخرج قليلاً يا فورتونو. سأعود في الساعة الخامسة.

أحس الخادم الهندي بثقل في قلبه. فنظف الطاولة وهو يهز رأسه، ثم انحدرت الدموع من عينيه بينما كان يتذكر سيده حين كان صبياً، وكان يلعب معه.

سار بوكس حتى سانتافي وتوقف هناك بانتظار وصول بائع صحف. واشترى أخيرا جريدة وتصفحها بسرعة. ومثلما كان يفترض، لم تكن هناك أي إشارة إلى حادثة السرقة في حديقة الحيوان. لابد أن المدير قد رأى أنه من الأفضل التكتم على القضية. ابتسم بوكس وألقى الصحيفة، وبعد دقائق من ذلك كان يدخل إلى حديقة الحيوان.

كان الأصيل الدافئ مشجعاً للزائرين المواظبين، فكانت

الحديقة تغص بالرواد. مشى بوكس بجوار أقفاص الغزلان، ثم دخل جناح الأسود. كانت تلك الضواري تتشمس؛ ولكن بوكس كان يرغب في رؤية وجوه الحراس والمروضين. وكان يقول في نفسه:

«سيكون من المستغرب ألا يراقبوا باهتمام وجوه الزائرين».

ولكنه لم يلاحظ وجود أي شيء غير طبيعي فيهم. فواصل تقدمه. وكانت النمور إلى الأمام، وعند أقفاصها كان ثمانية أو عشرة أشخاص يلتصقون بالحاجز الحديدي، ويتابعون بصبر حركة تلك الحيوانات القطيّة. توقف بوكس بينهم. وكان الأطفال يعلقون على أحسن وجه على حركة الحيوانات التي أمامهم.

ـ إن له قائمة بيضاء يا أبي!

ـ إنه يخفض رأسه عندما يصل إلى الحدائد ويرجع كيلا يجرح نفسه.

ـ لقد توقف، إنه يشم!

ـ إنه يتشمم بهذا الاتجاه يا أبي!

ـ لقد نهضت النمور الأخرى فجأة!

ـ إنها تتحرك في كل الاتجاهات... إنها تشمنا يا أبي!

كان واضحاً أن هناك رائحة عدائية تهيج النمور. الأب المرتبك، وبالرغم من ثقته بمتانة القفص، رأى أنه من الأفضل الابتعاد قليلاً بطفليه، فقد بدا له أنهما سبب ذلك الاضطراب.

ولدى تراجعه اصطدم ببوكس الشاحب والمرتعش. نظر إليه الأب متفاجئاً، فابتعد بوكس بصمت؛ وعندئذ استعادت النمور سكينتها.

قام بجولة واسعة قبل أن يتوقف أخيراً عند قفص القرود البرازيلية، واختلط بجموع المتفرجين. كانت القرود تتسلق السلاسل بسعادة إلى أن أطلق واحد منها فجأة صرخة حادة، فتوقفت جوقة القرود كلها عن الحركة دفعة واحدة. وأخذت جميعها تنظر باتجاه الحاجز مذعورة.

وبدأت التعليقات:

ـ لقد ارتعبت القرود... مم يا ترى؟

ـ إنها تخافنا.

ـ جميعها تتراجع إلى الخلف... إنها خائفة من أحدنا.

ـ أوه، أوه، أوه، القردة الأخرى! قردة القفص الدائري، إلى الوارء! لقد جُنت! إنها تريد تحطيم القفص! جميعها تزمجر!

وفي الحال حضر أربعة حراس.

ـ ماذا هناك! لماذا تُغضبون القردة؟

ـ ماذا...! هل جننت حضرتك مع القرود! لم يفعل لها أحد أي شيء.

ولكن ذعر القسم الأول من القرود وغضب القسم الثاني تواصل. فعلق أِحد المشاهدين:

ـ إنها غاضبة منا. لابد أن أحد الموجودين هنا قرد دون أن يعرف ذلك. ثم انفجر ضاحكاً.

الحراس القلقون الذين رأوا أن أحد المشاهدين على الأقل محق فيما قاله، أبعدوا الناس عن الحواجز.

ابتعد بوكس مع الجميع، ثم رجع إلى بيته. وكان يرتعش من الحمى عندئذ وأفكاره مشوشة. كان الوقت ما يزال مبكراً، والطبيب لن يأتي قبل الغروب. دخل إلى حجرة القرد، وحيث أنه كان متعباً، فقد أمر بإحضار أريكة واستلقى فوقها. لم يكن يُسمع أي صوت في الداخل. كان المصباح يرسل كل ضوءه فوق الكوميدينو تاركاً بقية الغرفة في ظلمة خفيفة.

مرت عشر دقائق. وكان بوكس يرقد دون حراك وهو يضع يديه تحت رأسه. وفجأة اعتقد أنه يرى السماء الصافية تدور بسرعة. فقال لنفسة:

«غريب، غريب جداً. لابد أني محموم كثيراً».

ضغط على معصمه، وفعلاً كان نبضه يتسارع بصورة دوارية. كما أنه كان يشعر بثقل في صدره وبوخزة قوية مع كل نفس يأخذه. وعاد مجدداً يرى السماء الصافية تدور، وفي أثناء ذلك سمع وقع خطوات خفيفة تقترب منه من الخلف. فقال بوكس بصوت عال وهو تحت تأثير الهذيان:

ـ آه! يا للروعة. إنه السيد القرد آتٍ لزيارتي.

أصاخ السمع، ولكن الخطوات توقفت؛ ولم يعد يُسمع أدنى صوت.

فابتسم بوكس:

ـ همم...! قرد المدير اللعين خائف أكثر مني.

ثم سمع من جديد وقع الخطوات الخافت جداً. ولكنها ما لبثت أن توقفت ثانية. فمد بوكس يده إلى الخلف من فوق مسند الأريكة. فأمسكت يده بشيء **رهيب**.

ـ هذا ليس هو! صرخ بوكس بذلك وقفز بعنف. كان الهدوء التام يخيم على الغرفة؛ وكان الجبون يرقد في السرير مصوباً نظره إلى السقف.

فدمدم بوكس وهو يمر بيده على جبهته:

ـ حرارتي مرتفعة جداً. لقد ظننت...

تمدد من جديد، وعادت الخطوات تدنو منه مجدداً؛ ولكنه بقي جامداً دون مبالاة هذه المرة. وبدا له أن رأسه ينفتح ويتجوف تماماً وأن شيئاً يقلب جسده من الداخل إلى الخارج من خلال الجلد.

أطلق صرخة وقفز من جديد؛ ولم يكن هناك شيء، وإنما الصمت نفسه. ففكر بوكس:

«إنني أهذي. يا لَهذا الكابوس! والأسوأ من ذلك أنني أحس

على ما أعتقد ببعض الصعوبة في إغلاق فمي... وصدري يؤلمني ألماً رهيباً».

وما إن استلقى للمرة الثالثة حتى دخل عليه الطبيب. وسأله وهو يتقدم نحوه:

ـ كيف حال زبوني؟

فرد بوكس من العتمة دون أن ينهض:

ـ إنه هناك... لست أدري.

اقترب لوبيث من السرير وأمسك معصم الجبون. ولكن عينيه انفتحتا على اتساعهما بعد لحظة، فدس يده تحت إبطه. وكان قلقه يزداد. انحنى وتنصت بدقة إلى صدر القرد ثم نهض أخيراً وقد شحب لونه:

ـ هذا الحيوان لا يعاني من أي شيء.

دنا بوكس ببطء وعيناه الزجاجيتان مصوبتان إلى الطبيب.

ـ كيف؟ والنزلة الصدرية؟

ـ لا وجود لأي نزلة صدرية: ليس به أي شيء على الإطلاق. ولكن، ماذا أصابك أنت؟

كانت عينا بوكس تتوقدان مثل جمرتين. فتح فمه ليتكلم، ولكنه ما إن فعل ذلك حتى انتابت لوبيث قشعريرة عنيفة.

ـ ما هذه الأسنان يا بوكس!!

ـ أي أسنان؟

أحس الطبيب بخيط من جليد ينساب عبر نخاعه الشوكي: كانت أنياب بوكس متقاطعة مثل أنياب...

وتلعثم بوكس:

ـ إنني محموم جداً. يؤلمني صدري...

فحصه الطبيب، وحين أنهى الفحص نهض شاحباً.

ـ يجب أن تلازم السرير فوراً يابوكس، فوراً.

لم يكن القرد يعاني أي شيء حينذاك؛ أما بوكس فكان مصاباً بذات الرئة **نفسها** التي تخلص منها الآخر...

ـ أجل، سأستلقي في الفراش... هل أصبح بإمكان القرد أن ينهض إذن؟

ـ بالطبع.

وأمسك الحيوان من يده وأوقفه.

لم يستطع لوبيث ولا بوكس أن يكبحا الصرخة. لقد كانت قامة القرد بطول قامتهما. وقفا جامدين، مذهولين، يغطيهما عرق بارد أمام تلك الهيأة المرعبة. وبعد انقضاء برهة الذهول، تقدم الطبيب ووضع يديه على كتفي القرد وحدق في عينيه. وبقي على تلك الحال خلال عشرين ثانية؛ ولاحظ بوكس الذي كان وراءه، الرجفة العنيفة التي راحت تنتاب جسد لوبيث.

ـ اسمعني يا بوكس. سمع الطبيب يقول له دون أن يدير وجهه لكي لا يستطيع الآخر أن يرى الشحوب المرعب في سحنته.

ـ ماذا؟

ـ ألم يعد القرد يتكلم؟

ـ لا.

ـ وهل تعرف لماذا لم يعد يتكلم؟

ـ لا.

مرت لحظة صمت:

ـ حسن، لاحظ هذا. القرد كان يتكلم **بالاسبانية** وليس بالهندية... هل تفهمني...؟ ليست قضية وراثة، إنها... هل تسمعني يا بوكس؟

وبما إنه لم يتلق جواباً، فقد التفت بسرعة. كان بوكس يقترب منه بحذر وبعينين متوقدتين، ماشياً على أربع.

ـ بوكس، بوكس، إنك ترتد عن مرتبة البشر! إنك...! صرخ لوبيث بذلك وهو يرفعه عن الأرض بعنف. ارتعش بوكس، وتطلع بثبات إلى صديقه وأطلق زفرة عميقة.

أصر عليه الطبيب بأن يضطجع في الفراش فوراً. فتلعثم بوكس:

ـ أجل... هنا.. سأضطجع هنا على الأريكة...

ـ أجل، أجل، تماماً. انتظر لحظة واحدة يا بوكس.

وخرج من الغرفة. ونادى الخادم بصوت خافت:

ـ فورتونو، هذه الليلة سنبقى أنا وأنت مستيقظين.

ـ ماذا هنالك، هل دون غييرمو...؟

ـ لا، ليس هناك أي شيء، ولكن قد تحدث أمور فظيعة.

رفع الخادم الهندي عينيه المذعورتين ورأى وجه الطبيب الشاحب.

وواصل لوبيث قائلاً:

ـ هل يملك بوكس مسدساً؟

ـ لا يا سيدي.

ـ حسن، اذهب واشتر واحداً إذن.

خرج فورتونو المملوء رعباً بسرعة.

وبعد ربع ساعة رجع فورتونو لاهثاً وسلم الطبيب السلاح وهو يرتعش.

فقال له لوبيث بصوت خافت:

ـ جيد. إنه محشو بالرصاص على ما أعتقد، أليس كذلك؟

نظر إليه فورتونو مصعوقاً:

ـ لا... لم أكن أعرف...

ـ ليس مهماً؛ ارجع بأقصى سرعة وأحضر رصاصاً.

عاد فورتونو إلى الخروج، وعندما رجع ثانية كان يرتعش بما يشبه الاختلاج من التعب الذي بلغ به أقصاه. ولكن الدكتور في غمرة قلقه لم يكن في وارد الإشفاق على العجوز، بل أدار طاحونة المسدس باهتمام، وتأكد من أن الإبرة تعمل جيداً، ثم عبّء السلاح. وعندئذ ترك المسدس فوق المكتب وذهب إلى غرفة القرد. كان بوكس يرقد على الأريكة وهو متدثر بالأغطية حتى ذقنه. وكان الجبون قد استلقى في السرير من جديد، وعلى الوسادة البيضاء كان يظهر رأسه الذي أصبح الآن بحجم رأس إنسان.

اقترب لوبيث من بوكس وأمسك يده بحنان. ثم قال له بصوت خافت جداً:

ـ بوكس، اسمعني. سيكون من الأفضل أن تنام في سريرك. لأن الحفاظ على درجة مناسبة من الحرارة في غرفتك سيكون أسهل بكثير من عمل ذلك في هذه الغرفة... وستكون هناك أكثر اطمئناناً.

فتح بوكس عينيه الزجاجيتين اللتين أحاطتهما الحمى بدائرتين سوداوين واسعتين. ورد عليه بصوت جاف ومتقطع:

ـ لا. إنني هنا في حالة أفضل. ثم أضاف باستياء وهو يلتفت إلى الجهة الأخرى: ـ دعني بسلام.

قطّب لوبيث جبينه، وتذكر غرائب بوكس واحدة فواحدة ـ **الأنياب نامية** ـ فألح عليه:

ـ بوكس، اسمعني!

فلم يرد عليه بوكس.

فانحنى الطبيب حتى لامست شفتاه أذني الرجل:

ـ بوكس؛ ما رأيك أن ننقل القرد من هنا... فهو قد شفي تماماً.

ما كاد بوكس يسمع ذلك حتى التفت بعنف وصوب عينيه المحمومتين إلى لوبيث:

ـ ماذا؟ ماذا هناك...؟ لماذا تريدون نقل القرد من هنا؟

ـ سيكون ذلك أفضل يا بوكس... وستكون أكثر اطمئناناً.

ـ لماذا؟

ـ لست أدري... أرجوك يا بوكس...!

فتح بوكس فمه، فاهتز لوبيث من أعلى إلى أسفل. فقد رأى وراء الأنياب غير المنتظمة لساناً أسود. ودون أن يرفع بوكس عينيه المتوعدتين عن عيني الدكتور، نهض مستنداً إلى مرفقه، وقال له بصوت غريب، خشن:

ـ إنني أمنعك... من إخراج القرد من هنا... وأنا أريد أن أنام؛ دعني.

نهض لوبيث بحركة يأس، ونظر من جديد إلى الجبون الممدد دون حراك، ثم خرج. وكان فورتونو بانتظاره وراء الباب:

ـ كيف حاله يا دكتور؟ ماذا هناك؟

ـ لا شيء، لا شيء حتى الآن... ولكن سيكون هناك شيء ما فيما بعد.

لقد أضاف هذه الجملة الأخيرة وكأنه يحدث نفسه وهو يرتعش. ولكن فورتونو الذي سمعه أوقفه مرتجفاً:

ـ دكتور! أرجوك أن تخبرني ما الذي سيحدث يا دكتور!

ـ وهل أعرف أنا نفسي ما الذي سيحدث؟ لو كنت أعرف ماذا سيحدث لكنت منعته... ـ وعاد يتمتم بينه وبين نفسه: ـ ولكنني كنت مستعداً لتقديم أي شيء مقابل إخراج القرد من هناك! ـ ثم أضاف: ـ انظر يا فورتونو. فلنذهب إلى المكتب ولنقض الليل متيقظين. وحاول من جهتك أن تسمع أي صوت مهما كان خافتاً. فإذا ما سمعت شيئاً.. أي شيء، أخبرني على الفور.

مضيا من فورهما إلى المكتب. جلس لوبيث على الأريكة، وجلس فورتونو على كرسي وراء الطاولة.

وخلال ساعة، ساعتين، ثلاث ساعات، كان الصمت المطبق يخيم على الغرفة. وكان لوبيث يقلب في ذهنه الرعب الذي يتوقع حدوثه؛ أما فورتونو المثقل الذي تجاوز حدود الكرب، فلم يكن يرفع عينيه عن المسدس الذي يلمع فوق المكتب، بينما أذناه تصغيان بألم إلى أدنى صوت يمكن أن يصدر من الداخل.

كانت تسود المكتب برودة جليدية. وكان المتربصان يشعران بالتجمد في جسديهما وأقدامهما، ولكنهما لم يكونا يتجرأان على

الحركة. وكلما طال الزمن كانت حدة قلقهما تزداد؛ وحين وصلا إلى تلك الحالة من الاستثارة المكروبة حيث تبدأ الأذنان بالأزيز والإحساس بالأصوات التي تخشيان سماعها، قفز فورتونو عن الكرسي. وأحس لوبيث بأن قلبه يتوقف، وتقاطعت نظرات الرجلين، فتلعثم فورتونو مرتجفاً:

ـ ظننت أنني سمعت...

ـ ماذا...؟

ـ ضجة صماء على الأرضية...

صمتا. وخلال لحظة بدا أن الصمت، بل أن أشد إحساس بالصمت على الإطلاق، يمكن أن يكون هناك، في المكتب.

وأخيراً كسر لوبيث ذلك الصمت بصوت لم يتعرف عليه هو نفسه:

ـ ألم تسمع شيئاً آخر؟

ـ لا...

صمتا من جديد. وفجأة قفزا معاً: لقد دوت صرخة، صرخة رهيبة، ملأت البيت بأسره.

ـ فلنسرع، فلنسرع! صرخ لوبيث وقد انتصب كل شعره، وهو يتناول المسدس.

وبعد لحظة انقضا على الباب، ولكنهما اصطدما به. فهتف لوبيث:

ـ لقد أقفلا الباب! لقد أقفلاه بالمفتاح! بوكس، بوكس!

ودوت صرخة أخرى في الداخل، صرخة بهيمية حادة.

ـ بوكس! يا للعنة، القرد! ـ زمجر لوبيث وهو ينقض مع فورتونو على الباب. ولكن الباب بقي صامداً، وبعد دفعة قوية جداً انفتح الباب بعنف على مصراعيه.

***

في الغرفة التي كان ينام فيها بوكس والقرد، كان الصمت المطبق يخيم تماماً عندما غادرها لوبيث. وكان بوكس قد استدار ثانية بعينين مفتوحتين، وكانت الحمى الشديدة تجعله يشعر من جديد بأن السماء الصافية تدور. ولكن اللوحة البيضاء بدأت تمتلئ الآن بأشكال كائنات مشوهة، مسوخ عابرة تظهر وتنطفئ دون توقف. ولم تلبث تلك الأشكال أن تحولت إلى حيات سريعة، لفافات من الثعابين تتشابك وتنحل بسرعة دوارية. وكانت كل تلك الأشباح الهذيانية تنزل بصورة لولبية دائماً، فتقترب من بوكس، وتطوقه، وتنتزع أنفاسه قبل أن تصعد من جديد، ثم تنزل ثانية وتلتف حوله مجدداً في ذبذبة كابوسية.

استمرت هذه الحال ساعة، ساعتين، ثلاث ساعات. وبقي

بوكس يلهث من الحمى وعيناه ثابتتان باتجاه السقف وقد أصبحتا هائلتين، لامعتين، ومحاطتين بدائرة سوداء. وكان الهذيان يزداد زخماً بين لحظة وأخرى.

وهكذا بدا له فجأة أنه يرى في السماء الصافية، بين لفافات الأفاعي الدوارية، وجه قرد هائل ومكفهر. وكانت اللفافات الكئيبة تنحدر بسرعة جنونية دوارة، ومعها القرد الذي ينظر إليه بتصميم. وحين وصلته الزوبعة، طوقته، وانتزعت أنفاسه ثم صعدت من جديد، لاحظ بوكس أن القرد بقي جاثماً فوق صدره وهو يغرس يديه في كتفيه ويلتهمه بعينيه. وسمع القرد يقول له:

ـ بوكس: منذ ثلاثة آلاف سنة كنتُ **رجلاً**، رجلاً مثلك، وكنت أعيش في الهند، في القرية نفسها التي كان يعيش فيها **سلفك**. إلا أنني كنت حينذاك معلماً، واحداً ممن يختارهم براهما، بينما كان جدك مجرد راعي جواميس. وكنت قد أغرقته بأفضالي وعملت من أجله ما لم يعمله أحد في الدنيا. فأنا من أطلق صرخة الإنذار عندما جاء الفيضان، وهي الصرخة التي سمعتها أنت قبل عشرين يوماً: **النهر يتعاظم... افتحوا الباب**. لقد مضى على ذلك ثلاثة آلاف سنة! بعد أيام قليلة من ذلك، قابل سلفك كرمي ومحبتي بالإقدام على قتلي عند اجتياز النهر. وقد كنتُ معلماً، كما أخبرتك، وكان لابد لي من أن أتقمص على الفور هيئة أكثر اكتمالاً بالفضائل من تلك التي انتزعها مني سلفك. ولكن براهما رأى أن

روحي قد تلطخت بالدنس: فقد كنت أرغب، وأنا أجهل ذلك، في أن أنتقم منك. ومضت مئة سنة، ثم ألف، ثم ألفا سنة دون أن أتمكن من التطهر: فدائماً، وفي ظل فضائلي الكبيرة، كنت أصبو إلى الانتقام. وبقيت على تلك الحال إلى أن جاءت لحظة التقمص المشؤومة، وتحقق ذلك، ولكن روحي كانت ملوثة: فكان تقمصي ارتداداً، تحولت إلى كائن دنيء، تقمصت هيئة قرد، ولن أستطيع خلال ملايين وملايين السنين من العودة إلى ما كنت عليه. ولكن، هاأنتذا يا بوكس، يا سليل من لوث روحي بجوره، تقبع تحت جسدي الذي ستتقمصه الآن.

كان بوكس يستمع لاهثاً إلى حكاية هذيانه هذه المغروسة فوق عظم القص في صدره. وعندما انطفأ الصوت، أحس بوكس بانخفاض في حرارته، فأغمض عينيه منهوكاً ودمدم:

ـ يا له من كابوس! لقد أحسست كما لو أن فوق صدري...

فتح عينيه وأطلق صرخة رعب، وكانت تلك هي الصرخة الأولى التي سُمعت في غرفة المكتب. ففوق صدره كان يجثم الجبون، القرد، وكان يحدق فيه بثبات! غام بصره هنيهة، وعندما استعاده من جديد، رأى القرد واقفاً في وسط الحجرة، يفصل ما بينه وبين المصباح. ولكن قبل أن يتاح له الوقت ليفتح فمه، كان القرد قد تحول إلى إنسان.

تلعثم بوكس وقد أصابه الرعب بمس من الجنون:

ـ إنه أنا! لقد تحول إلى هيأتي بالذات...!

ـ أجل أيها التعيس، إنني **أنت**! أما أنت، فانظر ما صرت إليه!

أراد بوكس أن يصرخ، ولكنه أحس عندئذ بخواء رهيب وجليدي في كيانه كله، وصعدت رائحة قذرة وعميقة من جسده بكامله إلى أنفه، ورأى برعب أنه لم يعد إنساناً؛ فقد تحول إلى قرد، إلى جبون!

عندئذ أطلق صرخة الرعب الثانية التي سُمعت في الخارج. وفي اندفاعة يأس مفرط ضد الدابة القذر والظافر الذي يقف منتصباً في منتصف الحجرة، وقد انتزع منه هيأته الآدمية، انقض عليه وهو يطلق زمجرة حقد.

ترنح القرد (وسنحتفظ لكل منهما بالاسم الذي عرفناه به حتى الآن، لتجنب الوقوع في ارتباكات فظيعة) أمام الهجمة الفظة وأحس بأظافر بوكس القاتلة في عنقه، بينما كانت ذراعه اليسرى تطقطق بين الأنياب المتوحشة. ولكن ذلك لم يدم إلا بقدر وميض البرق. ففي اللحظة التي اندفع فيها بوكس نحوه، كان القرد بدوره ينقض على فتاحة الرسائل الموضوعة فوق الكوميدينو والتي لها شكل خنجر مدبب. وبضربة مفاجئة واحدة غرسها حتى المقبض في عنق بوكس.

تراجع بوكس عنه مطلقاً زعقة اصطدمت بالباب في اللحظة التي انفتح فيها مخلوعاً على مصراعيه... واندفع لوبيث إلى الداخل

شاحباً كالموت والمسدس في يده، ولم يكد يتاح له الوقت لرؤية حيوان يخرج هارباً على أربع مخلفاً وراءه بركة من الدم.

ـ أغلق الباب الخارجي يا فورتونو! صرخ لوبيث بذلك وهو يفرغ رصاصات المسدس في أثر الحيوان، ويندفع بدوره إلى البهو. ولكن الوقت كان قد فات؛ فقد اختفى القرد في عتمة الشارع.

رجع مسرعاً، وكان القرد (يجب ألا ننسى أنه قد تحول إلى بوكس) ما يزال واقفاً في وسط الغرفة ووجهه شاحب.

ـ ماذا جرى يا بوكس؟ ماذا أصابك؟ ألم أقل لك...؟

ـ لا، لم يحدث أي شيء... أراد مهاجمتي.

ـ هذا هو ما كنت أخشاه بالضبط... أتريد أن أخبرك ما هو أكثر ما كان يخيفني يا بوكس؟

فابتسم القرد:

ـ حالة ارتداد ذهني...؟ أن يتحول القرد متخذاً شخصيتي...؟ أليس كذلك؟

حدق فيه لوبيث بعمق وارتعش:

ـ أجل، هذا ما كنت أخشاه... ولكنك لم تعد محموماً...؟

ـ ياه، لا، لقد ذهبت الحمى! هذا القرد اللعين جعلني أنفعل بإفراط... ثم أضاف وهو يبتسم من جديد: ـ ولكن، هل كنت تخشى حدوث ذلك حقاً؟

فرد لوبيث وهو يطلق زفرة راحة عميقة، ويمسح جبهته المتضمخة بالعرق:

ـ أجل، كنت أخشى ذلك، ولكنني لم أتجرأ على الاقتناع **بإمكانية حدوثه.** تصور...! حدوث حالة تحول من هذا النوع في وسط بوينس ايرس... ومع قرد أبله لا قيمة له...!

***

في أثناء ذلك، كان بوكس يركض في الشارع المقفر. كان يحتفظ بكامل قدراته العقلية البشرية، أما إرادته الإنسانية فكانت ملغاة تماماً وبعمق. كان يشعر بأنه يندفع راكضاً، رغماً عنه، باتجاه حديقة الحيوان دون أن تتمكن كل قواه العقلية من منعه من ذلك. وكان ينزف الدم دون توقف بينما كانت قواه تخور أكثر فأكثر.

على بعد مئتي متر عن بيته رآه عابر سبيل ليلي وهو يركض فالتفت فجأة. بدا له كلباً غريباً جداً، ولم يتوصل إلى ما هو أكثر من ذلك. أما في ساحة إيطاليا فرآه شرطي ليلي شبه غاف وهو يركض على الرصيف، فتعرف عليه. دخل الحيوان إلى الحديقة وركض الشرطي في أثره، وصرخ من المدخل:

ـ دورية، دورية! هناك قرد طليق!

كانت الدورية خارجة من جناح الأسود وسمعت الأصوات. تقدم أفرادها بسرعة، ورأى حارس كان يوجه مصباحه إلى اسفل آثار الدماء. فصوب الجميع مصابيحهم اليدوية إلى الأرض، واقتفوا

الأثر الدامي، فوجدوا الجبون، القرد الذي انحبست فيه إلى الأبد روح بوكس وحياته ومصيره، مطروحاً أمام القفص الذي كان يشغله من قبل، وكان ينزف وهو غائب عن الوعي.

أيقظوا المدير، وحُمل بوكس وعولج بعناية. ومع أن الجرح كان عميقاً إلا أنه لم يؤثر على أي شريان مهم، وكان النزيف الشديد وحده هو الذي يهدد حياة بوكس. ولكن المدير تأكد في صباح اليوم التالي من أن ذات الرئة، هذه النزلة الصدرية الرهيبة التي تصيب القرود، قد أصابت الجبون.

من السهل تصور تأملات المدير حول عودة القرد المأساوية. لقد كان في ذلك كله شيئاً غريباً، مذهلاً، يجعله يرتعش رغماً عنه.

وبما إن الهارب قد رجع إلى قفصه من جديد، فقد علقت علية لوحة تقول: **مريض**. ومع ذلك، فإن بوكس كان يحتفظ على ما يبدو بشيء من طبيعته البشرية في مقاومة ذات الرئة. ففي كل يوم يمر كانت النزلة الصدرية تتراجع قليلاً، حتى انقضت الأيام الثمانية التقليدية دون أي أزمة، وأُمكن اعتبار المرض منتهياً. وحيث أن الأمسيات التالية كانت دافئة جداً، فقد أمر المدير بإخراج القرد إلى القفص الخارجي كي يتعرض قليلاً للشمس باعثة الحيوية.

أحس بوكس في جسده القردي بمداعبة الضوء الرقيقة، ونظر مطولاً إلى السماء، بينما كانت روحه، روحه القديمة التي فقدت إنسانيتها تبكي في أعماقه هذا الدمار المحزن الذي حل به.

مضى وقت طويل. وعندما أنزل عينيه فجأة، ارتعش من أعماق روحه ارتعاشة جمدت الدم في عروقه كما في طعنة خنجر نجلاء.

فعلى المقعد، المقعد نفسه الذي كان يجلس عليه حين كان رجلاً، كان يجلس الآن القرد، ذلك اللص، وكان ينظر إليه بابتسامة جهنمية غامضة.

أحس بوكس بأن هناك شيئاً يغادره إلى الأبد، بينما كان شيء أسود فسيح ينطلق بأقصى سرعة صوب عينيه.

عندما حضر المدير بعد نصف ساعة، وجد جرح عنق الجبون مفتوحاً تماماً من جديد وهو ما يزال ينزف: ميتاً.

الفهرس



لي في سالتو الشرقية ابنا عم أصبحا اليوم رجلين، ولكنهما حين كانا في الثانية عشرة، وبتأثير استغراقهما في قراءة جون فيرن، قررا هجر بيتهما والذهاب للعيش في الجبل.